الفصل الثانى

ما يجب تغييره وإصلاحه
لضمان مستقبل باهر

تلك جوانب من ماضى الإسلام وحاضره فى هذه البلاد.

وتلك أطراف من عناصر الداء والبلاء التى قعدت بأمتنا عن الرقى والتقدم.

وإذا أردنا أن نتحرر من تلك السلاسل والقيود ونتخلص من هذه الأوبئة والجراثيم فعلينا أن نعمل على إزالة عقبات فى طريقنا واستغلال طاقات بأيدينا لصالحنا.

ففى هاتين العمليتين ضمان المستقبل الباهر للإسلام والمسلمين فى هذه البلاد التى هى جزء كبير من أجزاء المعمورة وعضو عظيم من أعضاء الجسد الإسلامى.

نسأل الله أن يقيض لنا من يقوم بهما ويسعى فيهما حتى النجاح وهى كما يأتى:

أولا: إزالة التمييز العنصرى بين مسلمى الشمال والجنوب.

ثانياً: إبطال احتكار المناصب الدينية فى أسر معينة وبيوت محدودة.

ثالثاً: منع تدخل غير المتخصصين فى شئون الدين الإسلامى.

رابعاً: ترك محاربة بعضنا بعضا تحت محاربة البدع والخرافات.

هذه هى الناحية السلبية التى يجب أن نقوم بها، وإن تركنا الحبل على غاربها يجعل البأس بيننا شديداً ويعيد علينا وقعة الجمل وصفين والنهروان التى لم يكتسب الإسلام فيها أكثر مما خسر.

أما الطاقات المعطلة التى يجب استغلالها لصالح الدعوة فهى كثيرة وهى الناحية الإيجابية التى يجب أن نقوم بها:

أولاً: إصلاح وضع المرأة المسلمة فى الشمال وضعا دينياً واجتماعياً وثقافياً فإن منعها من كل شيء تضييع لهذه الطاقة.

ثانياً: تعميم نفع الخطب المنبرية وتجديدها وفق الأحداث والوقائع، فإن تكرارها وإلقاءها بلغة لا تفهم إهمال لهذه الطاقة.

ثالثاً: إنشاء رابطة لأئمة المساجد حتى يتعارفوا ويتحدوا فى وجهتهم، فإن عدم التعارف والتعاون بينهم تضييع لهذه الطاقة.

رابعاً: القرآن قوة وطاقة أسأنا استعمالها درسا وفهما وكشفا فيجب إحسان استعمالها باستنباط العلوم من القرآن فلا ننتظر حتى يكتشفها الغرب ثم نحاول تطبيق القرآن عليها.

خامساً: الدعاء سلاح المؤمن هو طاقة مهملة علينا أن نستعمله للصالح العام.

سادساً: الاعتزاز باللغة العربية لأنها جزء من الإسلام لا يتجزأ وهى سبيل إلى توحيد الثقافة الإسلامية العالمية.

* * *

• منشأ النزعة القبلية فى نيجيريا وغرب أفريقيا :

كانت قبائل أفريقيا تعيش على محاربة بعضها بعضا ليتغلب القوى على الضعيف ليستعبده ويستخدم ما شاء لخدماته فى الحرث والحرفة ويبيع ما شاء فى أسواق النخاسة، أو فى ساحل المحيط للأوربيين الذين يأتون لجلب العبيد السود إلى بلادهم لتسخيرهم فى الأعمال الشاقة.

وكانت كل قبيلة تتخذ لنفسها رسوما وأشكالا هندسية على الخدود والأصداغ لكى تمتاز كل قبيلة عن غيرها، وليعمل من ينتمى إلى القبيلة فى إنقاذ من وقع فى الأسر، أو من يباع عبداً فى أى مكان.

ولهذا كان بعض القبائل يرى أن كل قبيلة أخرى عبيداً لها، وكان الهوسا السبع يسمون أنفسهم أحراراً وغيرهم من الهوسا عبيدا «هوسابنسا» أى سدى.

وكان الهوساويون يستهينون باليربا ويطلقون عليهم «بى رى بى» تحقيراً.

وكان البرناويون يسمون غيرهم «عَفْنُو» بمعنى عبيد برنمو.

وكان اليرباويون لا يعرفون من قبائل «هوسا» غير قبيلة «غوبر» التى عرفها اليرباويون كعبيد يباعون فى شواطئ المحيط، ولهذا أطلقوا على الهوسا جميعا كلمة «غنبرى» تحريفا لغوبرى فلزمهم الاسم حتى اليوم، لا تستطيع هذه القبائل أن تعيش جنباً إلى جنب أحراراً فى وئام وسلام، إلا بحكم ضرورة التحالف التجارى فى بعض فترات السلم.. هذا كله قبل الاستعمار.

ولما وقعت الدول الأوروبية فى التنافس على شاطئ غرب أفريقيا وعقد مؤتمر فى برلين ١٨٨٥م لوضع حد لهذا التنافس واعترفت الدول المشتركة فى المؤتمر بحماية الإنجليز على الأجزاء المعروفة اليوم نيجيريا أسرع الإنجليز إلى عقد الاتفاقيات مع ملوكها وكان من بنود الاتفاقيات :

أولا : منع تجارة الرقيق وتحريمها بتاتا.

ثانيا : إطلاق حرية التبشير المسيحى فى البلاد.

ثالثاً : إيقاف الحروب بين القبائل وتأمين طرق المواصلات، ولم تجمع البلاد التى وقعت تحت حوزة الإنجليز فى عنوان واحد إلا عام ١٩١٤م، حيث أطلقت على بلاد هوسا ويوربا وبرنو وإيبو اسم نيجيريا وذلك فى بداية الحرب العالمية الأولى.

انتهت الحرب العالمية الأولى فأعقبت روح القومية فى شعوب العالم فنشأت روح القومية العربية التى توقدت نارها عقيب الحرب العالمية الثانية، وعلى العكس من ذلك أمر نيجيريا فإنها لم تعرف القومية، بل عرفت القبلية لأن قبائلها كانت تعيش متفرقة وأصبحت حديثة عهد بالتأليف والتكوين عند قيام الحرب العالمية الأولى.

فالمقاطعات الشمالية كانت على التقريب تحت حكومة سوكوتو التى وحدها الشيخ عثمان بن فودى تحت حكومة إسلامية وتحتها قبائل فلان وهوسا ونوفى وبرغو.

والمقاطعات الجنوبية أكثرها تحت ملك يوربا فى مدينة أويو ولم يعرف الناس بالوضوح حالة المقاطعات الشرقية بلاد إيبو حين ذاك.

ولم يبدأ ضم هذه المقاطعات مع بعضها إلا منذ ١٩١٤ حيث تم الاندماج تحت إدارة إنجليزية واحدة بعد الحرب العالمية الأولى ١٩٢٠.

لذلك لا تزال روح العداوة بين القبائل باقية ولا تزال النزعة القبلية قوية إلى يومنا هذا، ولا تزال الحكومة تنفق كل شيء لبث روح الوطنية بين القبائل غير أن هناك من يريدون أن يكونوا دائماً وأبدا على رأس الحكم، وأن يحتلوا الدرجة الأولى فى كل مكان.

ومن المعروف أن كانت الصلات التجارية والدينية بين قبائل هوسا ويوربا منذ زمن متوغل فى القدم، ولكن روح التمييز العنصرى بينها ظلت قوية إلى اليوم.

وكان الذين نشروا الإسلام فى بلاد يوربا أفراداً من مختلف القبائل الشمالية من برنو أو غوبر أو فلانه أو مالى من الذين بيعوا عبيدا إلى ملوك يوربا، أو من التجار المتجولين فى البلاد بحكم التحالف وهما فريقان:

فريق خلعوا عن أنفسهم العصبية واختلطوا باليوربا وتصاهروا وعاشوا بين ظهرانيهم فكان منهم أئمة البلاد، فظلت الإمامة موروثة فى أعقابهم إلى يومنا هذا ولكنهم نسوا تقاليدهم الأصلية.

وفريق اعتزلوا أهالى البلاد فى حى خارج البلد وهم تجار احتفظوا بعصبيتهم وانفردوا بتقاليدهم إلى اليوم كالفلانيين والهوساويين.

ويرجع عهد ذلك إلى ما بعد استقرار الإنجليز فى البلد وتأمين الحياة والطرق للتجارة حسب الاتفاقيات السالفة الذكر.

وأول سابنغرى فى بلاد يوربا يعود إلى ١٩٠٠م وهو حى الهوسا فى أبادن، وأقدم سابنغرى فى الشمال كانت فى كانو بالقرب من ذلك التاريخ.

* * *

• **التمييز العنصرى فى الدين :**

قل لى يا صاحبى هل عرفت فى العالم العربى أو العالم الإسلامى قبيلة من القبائل الإسلامية، أو شعبا من شعوب المسلمين من يستنكف أن يصلى وراء غيره لأنه يزكى نفسه فى العقيدة والعبادة والورع والصلاح، ويفضل نفسه على قبيلة بأسرها، أو شعب معين بأسره؟

وإن لم تكن تعرف ذلك فإن قبائل هوسا فى نيجيريا تفعل ذلك ولا تخشى لومة لائم، مع أن الله يقول: ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم : ٣٢] وأنا الكاتب من قبائل هوسا ولكنى لا أحمل مثل هذا الاعتقاد الفاسد.

ولعل طائفة من غلاة الشيعة لا يصلون وراء غير شيعى وذلك لاختلاف المذاهب فى العقيدة والسياسة والإمامة وهم لا يقصدون قبيلة بأسرها ولا شعبا معينا بأسره.

أما سادتنا الهوساويون - عفا الله عنا وعنهم - فقد كالوا الملايين من مسلمى يوربا بالكيل الجزاف لا يصلون خلفهم لأنهم فى زعمهم جميعا أرجاس وأنجاس، مع ما فيهم من فقهاء وصلحاء وعباد ونساك كما فى قبائل هوسا.

وإن كان هذا الزعم جائزا فى صدر الإسلام فليس له مبرر فى هذا الزمان، ولا شك أنه يوجد أخيار وأشرار فى كل أمة وكل قبيلة، و يوجد من الهوساويين الأعراب الذين لا دين لهم، ويسمون « ماغذوا » كما يوجد اليورباويين من هم منافقون يخلطون إيمانهم بظلم ، وهذا لا يجعلهم كلهم سواء فى كل مكان وفى كل زمان .

بل التمييز العنصرى ، و العصبية القبلية من عقابيل الجاهلية هى التى أوحت باعتقاد التفاضل إلى أئمتنا الأهوساويين حتى صاروا يزكون أنفسهم و يرون الفضل على غيرهم، حتى توارثوه كابرا عن كابر، كأنما تواصوا به و تواعدوا عليه .

وأنا الكاتب لهذه السطور هو ساوى يرباوى، و كان بعض الهوساويين أحيانا يصلون ورائى على أساس أنى لست من اليوربا الخلص ، بل من أهل الورن وهى جزء من الشمال .

وصلاتهم ورائى على هذا الاعتقاد لا يسقط الإثم والخطيئة، ولا يمنعنى أن أقول الحقيقة، لأنى أعرف أن ذلك التصرف يورث الحفيظة و الضغينة التى لا تموت بل تفت الوحدة وتنكث القوة، وتضر بوحدة نيجيريا السياسية فى المغبة .

وإذا كان سادتنا المسلمون لا يعترفون بإسلامنا و نحن أقرب الناس إليهم إخاء فى الدين فما هو الحبل المتين الذى يربط الجنوب و الشمال ؟! فماذا يكون أساس الإخاء و الوحدة والشعور المشترك فى الآمال والآلام بين أبناء الوطن الواحد ؟

فكيف يتم ما ندعو إليه من الوحدة و الإخوة و الوطنية بين مختلف القبائل المتفرقة المتعصبة ؟ و إذا سألت هاوساوى لم لا يصلى وراء يرباوى ، أجاب بواحد من الأسئلة الآتية :

إما أن يقول إنه لا يثق بإيمان اليرباوى لأنه لا يخلو من رواسب الكفر و الوثنية .

وإما أن يقول إن اليرباوى لا يضرب الحجاب على امرأته بل يطلق سراحها للبيع و الشراء فى الأسواق ، حيث يختلط الرجال بالنساء، وهم أنفسهم لا يتنزهون عن التعامل مع هؤلاء النساء فى الأسواق، أو أن يقول : إنهم لا يسرعون فى دفن موتاهم، أو يجعلون الجنازة كالوليمة .

وإما أن يقول إن أكثر أئمة يوربا لا يستوفون شروط الإمامة بل يرثونها بحكم الوراثة، وقد تواصوا على هذا و اتفقوا عليه، فى طول البلاد و عرضها .

اللهم إلا ما حدث أخيرا فى لاغوس حيث رأى زعماء السياسة أن سفراء الدول العربية لما أتوا جعلوا يصلون وراء الإمام اليرباوى فى الجامع الكبير فى لاغوس صار رئيس الدولة أو نائبه المسلم يحضر الجمعة فى الأعياد الرسمية ليصلى، كما يذهب رئيس الدولة أو نائبه المسيحى إلى الكنيسة الكبرى فى تلك الأعياد.

هذا ما بين المسلمين فى نيجيريا و ليس مثل ذلك بين المسيحيين النصارى و لا مثل ذلك فى أى بلد من بلدان العالم، فعسى الله أن يقيض لنا من يعالج هذا الداء الوبيل .

أيها الهوساويون السادة، أعيدوا النظر فى هذا الأمر وأصلحوا ذات بينكم و بين إخوانكم اليرباويين لتحقيق الإخاء والوحدة والتضامن فى الدين أولا ثم فى الدنيا ثانيا .

فإننا إذا عجزنا عن التآخى و التسامح و التواضع فى الدين فلا يمكن أبدا أن يتم ذلك كله فى الدنيا، فلا تتم الوحدة المنشودة، وحدة نيجيريا التى أهدرت لها الدماء، ودمرت لها الممتلكات بين بيافرا و نيجيريا .

فإن الاستمرار على التفرقة العنصرية بهذه الصورة سوف يتعدى الميدان الدينى إلى الميدان السياسى، فتكون الطامة الكبرى التى لا تحمد عقباها ، من حيث نحتسب ومن حيث لا نحتسب .

فخذوا ذلك منى عذرا أو نذرا ، فقد أعذر من أنذر[1]

* * *

• شروط الإمامة :

وضع الفقهاء للإمامة شروطا منها ما هو صحيح ومنها ما هو ضعيف، و اتفقوا على أن الشروط الضعيفة لا تبطل الصلاة، و إنما تكره الصلاة بها مع وجود من استوفى الشروط الصحيحة .

---

(١) ولقد سبق أن نشرنا رسالة تحت عنوان : ((الدين النصيحة)) عام ١٩٤٨ .. أنذرنا فيها أمراءنا الشماليين من مغبة ما هم فيه من إهمال أمر الدين و الإهتمام بأمر الدنيا والملك والسلطنة .. و أشرنا لهم إلى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ.. ﴾ التوبة : ٢٤ إلخ .. ونحو ذلك من الآيات و الأحاديث فلم يبالوا .
فقام بعد ذلك النظام الديمقراطى الانتخابى ، فأضاع طرفا من شرفهم ، ثم قام الحكم العسكرى فأجحف بالبقية الباقية من ذلك .
فاليوم نرسل هذا الإنذار أيضا .. فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر .

وأهم تلك الشروط : الإسلام والبلوغ والذكورة والطهارة ويؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا فى القراءة سواء فأعلمهم بالسنة فإن كانوا فى السنة سواء فأقدمهم هجرة، وإن كانوا فى الهجرة سواء فأقدمهم إسلاما أو سنا، ولا يؤم الرجل الرجل فى سلطانه، ولا يقعد فى بيته على تكرمته إلا بإذنه .

أما ما ورد كراهة إمامتهم ـ وهى الشروط الضعيفة ـ فقد ردوا عليه بحديث: «من صحت صلاته فقد صحت إمامته، وإن الصلاة تصح خلف كل بر وفاجر» .

وفى البخارى أن ابن عمر كان يصلى خلف الحجاج وهو من هو فى الفسق والفجور . وروى مسلم أن أبا سعيد الخدرى صلى خلف مروان الذى امتنع النبى ﷺ أن يساكنه المدينة ونفاه إلى الطائف .

وصلى ابن مسعود خلف الوليد بن عقبة بن أبى معيط، وكان يشرب الخمر وصلى بهم يوماً الصبح أربعا وجلده عثمان على ذلك .

وكان الصحابة يصلون خلف ابن عبيد وكان متهما بالإلحاد وداعياً إلى الضلال ، وروى البخارى فى التاريخ أن عبد الكريم قال : أدركت عشرة من أصحاب محمد ﷺ يصلون خلف أئمة الجور .

أما كراهة أو تحريم الصلاة خلف قوم معينين بأسرهم أو قبيلة معينة بأجمعها بغير استثناء برهم وصالحهم وعالمهم وفقيههم فلم

يرد به نص فى أى حديث، أو فى كتاب فقه إلا فى كتب إخواننا الهوساويين وفى منطق إيمانهم الذى استأثروا به .

* * *

• الاحتكار والاستهتار من العوائق :

إن احتكار المناصب فى نيجيريا منشأه الحكم الوراثى أو النظام الأرستقراطى السائد فيها قبل الإسلام ، والإسلام يأبى الحكم الوراثى ولا يرضاه بأى وجه .

لذلك لم يعين النبى عليا على الصلاة وهو أقرب الناس إليه، بل عين أبا بكر الصديق وهو بدوره عين عمر بن الخطاب خليفة بعده، و قال : « إنى والله ما آلوت من جهد الرأى ولا وليت ذا قرابة » ، واختار عمر عند موته ستة من الصحابة و أمرهم أن يختاروا منهم واحدا، ومنع ابنه عبد الله أن يكون له من الأمر شيء، وهو من كبار الفقهاء و العباد، وكان مما أخذ الناس على عثمان أنه كان يولى ذا قرابة .

ولما آل الأمر إلى معاوية ومن بعده أبطلوا تلك القاعدة وصيروا الأمر وراثيا بعد أن صيروا الخلافة ملكا عضوضا، وتبعهم فى ذلك من جاء بعدهم من الخلفاء العباسيين .

وقد أخذ به أمراء المسلمين فى الشمال لأنه وافق النظام الأرستقراطى السائد فى البلاد ، وشر ما فى النظام الوراثى هذا أنه يورث التأخر فى القيادة الروحية التى وضع الإسلام لها شروطا يجب استيفاؤها لكل من يتولاها .

ذلك لأن وارث المنصب إذا علم أن المنصب صائر إليه حتما بلا قيد ولا شرط تساهل فى الاستعداد وأهمل العلم والصلاح والورع والتقوى .

هذا الذى حدث فى نيجيريا شمالا وجنوبا وأورث المسلمين التأخر، ومنشأ ذلك أن كثيرا من أمراء الشمال تمسكوا بزمام أمور الدين كما تمسكوا بزمام أمور الدنيا وقيدوا بذلك نشاط الدعاة وحرياتهم، فلا يقوم الداعى بأى أمر إلا بإذن الأمير على النحو الذى يريد الأمير، وكل من يخالف ذلك يتهم بشق عصا الطاعة ويستحق العقاب أو العتاب .

والأمراء ليسوا سواء منهم الأكفاء ، الذين ورثوا العلم والدين وأمانة الأداء كأمير غندو هارون الرشيد .

ومنهم من ورثوا الدولة فقط ، يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وهم الأكثرون ، الذين جلسوا كابوسا على جماعة نصر الإسلام ، لم يعملوا ولم يتركوا المجال للعاملين .

بل صيروا مجلس الجماعة مجلسا للأمراء ، الذى يجمعهم بعد تمزيق وحدة الإقليم الشمالى .

ومن شواهد هذا الاحتكار [1] أن جهاز نصر الإسلام يكاد يكون محصورا فى سوكوتو بالدرجة الأولى، لأن سلطان سوكوتو هو الرئيس وينوب عنه شيخ برنو، والسكرتير العام من سوكوتو،

(١) الاحتكار فى الأصل : ادخار المتاع لبيعه بثمن غال عندما يبحث الناس عنه ولا يجدونه، واستعير هنا للحكم الوراثى، أو حصر المناصب الدينية فى أسرة أو بيوت معينة.

والرائد الدينى العام من سوكوتو، وهو الممثل الوحيد لنيجيريا فى العالم الإسلامى، ولا تنفق سوكوتو جميع ميزانية الجماعة بل على كل ولاية أن تنفق على نفسها .

ومن شواهد الاحتكار أن الفتاوى الدينية تعلنها جماعة نصر الإسلام باسم سلطان سوكوتو، ولعل هناك شخصا يفعل ذلك باسم السلطان وهو برىء .

ولو أصدر الفتوى باسم مفت أو شيخ الإسلام، العالم القدير الشهير لكان أنسب، حتى ولو كان السلطان أعلم الأمراء، وقد أحال الشيخ عثمان وهو أعلم الأمراء ، وأمير العلماء أحال أمر الفتيا و القضاء والإمامة إلى أحد العلماء وهو محمد ثنبو بن عبد الرحمن الذى استشهد فى واقعة تنثو .

وعلى ذلك يجرى الأمر فى العالم الإسلامى و العالم العربى حتى اليوم . ولم يسمع من أى بلد أن الرئيس أو الملك، هو الذى يصدر الفتاوى الدينية، مع أنهم ليسوا جهلاء فىأمر دينهم، كالسعودية مثلا فقد فوضوا أمور الدين إلى آل الشيخ وتلاميذهم واكتفوا بأمور الدولة وتنفيذ أوامر الدين .

لم تفعل نيجيريا مثل ذلك ، ولكنهم طالبوا نصب المفتى فى غير مطلبه، ولما اعترض عليهم لم يعيدوا النظر فى الأمر على المنهج الذى يتم سهلا .

ومن قبيل الاحتكار مطالبتهم بأن ينص الدستور على منصب المفتى واعتباره رئيسا للمحكمة الشرعية الاستئنافية الفيدرالية، عند وضع الدستور للجمهورية الثانية ما بين ١٩٧٧ - ١٩٧٨م

فاعترض من هم النصارى من أعضاء مجلس الدستور، فهم تسعة وعشرون والمسلمون منهم عشرون فقط.

وكان الخطأ عند تعيين الأشخاص وتقدير الأعداد، حيث أعطوا الأقلية أغلبية العدد.

والحق مع المعارضين لأن القضاء النيجيرى على قسمين:

قسم يسمى القضاء الوطنى فى المحاكم الوطنية الأهلية، وهى التى يحكم فيها رؤساء القبائل بحكم التقاليد والعرف والعادة فى الجنوب.

ويحل محلها المحاكم الشرعية وهى التى يحكم فيها القضاة الشرعيون فى الشمال، ولا يتجاوز الحكم فى هذه المحاكم حدود الأحوال الشخصية قبل الاستقلال وبعده.

أما القسم الثانى فهو المحاكم القانونية التى تنظر فى الأحكام الجنائية، ويحكم فيها الخريجون من كليات الحقوق المدنية، ويدافع فيها المحامون حسب قانون الإنجليز، وهى موجودة فى كل إقليم وكل مدينة كبيرة.

ويستأنف منها إلى المحكمة العليا فى العاصمة، حتى يرأس أكبر قضاة نيجيريا. فطلب إخواننا نصب المفتى ونصب المحكمة الشرعية العليا فى العاصمة كالأولى.

مع أن المحاكم الشرعية لا تمتد إلى الجنوب، بل هى مقتصرة فى الشمال ذلك سبب فشل المطالبة.

ولو أنهم طلبوا أولا أن ينص الدستور أن الإسلام دين الدولة ونجحوا فى ذلك ثم طلبوا تعميم المحاكم الشرعية فى جميع البلاد بدل المحاكم الوطنية التى تحكم بالعرف والعادات، ولم يجمعوا بين المفتى الذى يجيب على الفتاوى والمفتى الذى يرأس المحاكم الشرعية لنجحوا بسهولة فى كلا الأمرين واحدا بعد الآخر.

ولو أنهم نصبوا المفتى واعترفوا به شعبيا كما اعترفت الكنيسة برئيس الأساقفة دون أن ينص الدستور بذلك، ثم اعترفت به الحكومة رسميا لاعترفت الحكومة بالمفتى رسميا كما اعترفت برئيس الأساقفة للكاثوليكية والإنجليكانية.

نعم.. كان الخلفاء الراشدون والأمويون يجمعون بين الإمامة الكبرى التى هى الخلافة، والإمامة الصغرى التى هى إمامة الصلاة، وكانوا يخطبون فى الجمع والأعياد.

ولكن الأمر صار يتدهور بالتدريج إلى أن استقل كل منهما عن الآخر من أيام الصحابة إلى أيام التابعين من الأمويين والعباسيين.

واستأثر الخلفاء والسلاطين بنظام الدولة وأمور الدنيا، وفوضوا أمور الدين والفتيا والصلاة والقضاء إلى العلماء الفقهاء، مع أن أولئك الخلفاء ليسوا جهلاء، ولكنهم أسندوا الأمر إلى أصحابه المختصين به، كما فعلت السعودية فى الوقت الحاضر.

وعليه كان الأمر أيام الشيخ عثمان بن فودى حيث إن الأمراء كانوا علماء وفقهاء، وكذلك من بعدهم إلى أن آل الأمر إلى من دونهم فى سائر المستويات فصاروا يعينون من ينوب عنهم فى

القضاء والإمامة والولاية، ولا يجمعون بين الإمارة والإمامة، ولا بين الفتيا والقضاء، سواء أكان هؤلاء الأمراء علماء أو غير علماء(*).

ومن الغريب، أن المسلم النيجيرى لا يزال يتمتع بالحرية الدينية التى هيأها التبشير لنفسه، من أول يوم دخوله فى هذه البلاد، ليتمكن من التغلغل فى الأوساط الإسلامية، لتنصير أبناء المسلمين، فاستفاد منها المسلمون فى الجنوب على غير إرادة التبشير، فتمكن الدعاة من حركات ونشاطات عادت بالنفع العظيم للدعوة فى الجنوب، على نحو ما لم يتوفر مثله فى الشمال للخوف من الأمراء هناك.

لهذا كثرت المنظمات الإسلامية فى الجنوب وأثمرت النتائج، وقلت أمثال هذه المنظمات فى الشمال.

ولا ننكر أن فى سيطرة الأمراء على الحكم والأمر أثرا كبيرا فى المحافظة على النظام والأمن، ولكن رب منفعة جلبت مضرة، ورب مضرة جلبت منفعة، والحكم بالأغلبية الأكثرية.

(*) ليت جميع أمراءنا كانوا كالأمير عبد الله بايرو أمير مدينة كانو المتوفى سنة ١٩٥٤م فقد ناصر الدين والعلم، وشجع الطلاب ورفع من قدر العلماء.
ومن آثاره مدرسة الشريعة الاسلامية، وبناء المسجد الجامع على الشكل الحالى.وليتهم كانوا جميعا كالأمير جعفر بن إسحاق أمير زاريا المرحوم، وكذلك الأمير عبد القادر بن شعيب أمير ألورن المتوفى ١٩٥٩م.
وبقى منهم على قيد الحياة أمير غندو هارون الرشيد أبقاه الله، وهؤلاء هم بقايا الأخيار الذين جاهدوا فى سبيل أداء أمانتهم.

حلف الزمان ليأتين بمثلهم ... حنثت يمينك يا زمان فكفر

ولا يسع الوقت بتعداد أسماء من عرفنا وهم كثير فعلى الباقين أن يأتسوا بهم وفق الله الجميع لما يحب ويرضى.

وسر ما فى الأمر أن بعض أصحاب الحق جبناء، يخافون من حيث لا موجب للخوف، ونجد دعاة الضلال جرآء شجعانا لا يخافون ولا يخشون أحدا كمحمد مروة صاحب اللعنات الذى أدعى النبوة فى مدينة كانو، ونفاه الأمير محمد سنوسى، وفى أيام الحكم العسكرى الأول رجع إلى كانو واستقر بها القرار، وقامت بينه وبين حكومة شغارى معارك بوليسية ولم تستطع القضاء عليه إلا بالقوة العسكرية سنة ١٩٨٢م.

لقد سقط من أيدى الأمراء نفوذهم من أيام الحكم العسكرى الأول واستطاع بعض الأحرار أن يقوموا بالنشاط، فعسى الله أن يهدى الجميع.

الدهر أنكد من أن تستمر به

حال تكرهت تلك الحال أم شيتا

* * *

• الاحتكار والاستهتار عقبتان فى الجنوب :

إذا كان الاحتكار وحده عقبة فى سبيل الإصلاح والتقدم فى الإمارات الشمالية فقد زاد الطين بلة أن وجد الاستهتار سبيلا للدخول فيصبح عقبة أخرى فى الجنوب فمن إطلاق حرية كل فرد أن يتكلم فى الدين صار يتهاتر فيه من لا يحسنه.

أما الاحتكار فلأن الجنوبيين قد قلدوا الشماليين فى حصر المناصب فى بيوت معينة، أو قلدوا ملوك بلادهم فى النظام الارستقراطى السائد هنا وهناك.

فالإمامة منصب رسمى لدى الحكومة المحلية والإقليمية لأن الإمام هو القائد الروحى والزعيم الشعبى الذى ينوب عن المسلمين فى المجتمع لاسيما فى البلاد التى يكون ملوكها غالبا من غير المسلمين، فيكون الإمام الكبير بمنزلة أمير المسلمين يحسب له الملك أو السلطان ألف حساب، لأنه وحده يجتمع إليه المسلمون كل أسبوع فى الجمعة كما يجتمعون إلى نائبه من الأئمة الصغار خمس مرات كل يوم.

لذلك صارت له صفة شبه رسمية فى كل بلد يؤخذ برأيه وينتظر أمره، ولا يقطع أمر المجتمع حتى يشهده.

ولقد بلغ الأئمة فى بلاد يوربا مكاناً رفيعا لم يبلغه حتى الآن رؤساء الأديان الأخرى من القساوسة والمطارنة والكهنة غير أن أكثر الأئمة كانوا لا يحسنون استعمال هذه المناصب واستغلال هذه الفائدة.

لذلك استغلها الأثرياء والأغنياء والسياسيون والمثقفون لأنفسهم فصاروا يتكلمون بلسان المسلمين نيابة عن الأئمة وجماعتهم.

* * *

• كيف تدخل الأغنياء فى شئون الأئمة ؟ :

استطاع الأثرياء وعلية الناس أن يتدخلوا فى شئون المسلمين وإدارة المساجد وتولية من شاءوا من الأئمة فى بلاد يوربا للأسباب التالية:

أولا: تحمل بعض الأثرياء القسط الكبير من تكاليف عمارة المسجد، أو تبنى بعض المشاريع الخيرية التى تعود بالنفع العام للمسلمين، أو الدفاع عنهم أمام أعداء الإسلام من الوثنيين والنصارى، فيحمل ذلك بعض الأئمة إلى خلع لقب سيدنا أبى بكر الذى ترجموه إلى الأب الأول للدين أو بابا الدين أو لقب سيدنا حمزة وسيدنا على بن أبى طالب بما ترجموه إلى «بلوغن» أى القائد الصنديد أو الرئيس الدينى «سركى الدين».

خلعوا عليهم هذه المناصب بموجب ما قدموا من نصرة الإسلام فتدرج الأمر شيئا فشيئا إلى أن صار هؤلاء الأنصار أسيادا على الأئمة فى كثير من البلاد فصاروا بين المسلمين فى الجنوب كالأمراء فى الشمال يديرون شئون المسجد والجماعة والأئمة أيضاً.

ثانيا: عجز بعض الأئمة عن حسن إدارة المسجد وترميمه كأن يجمع الصدقات والتبرعات من الجماعة على قصد تعمير المسجد أو ترميمه فيصرف هذه الأموال فى حاجاته الخاصة فيقوم بعض الأعيان بتأليف لجنة جمع الصدقات والتبرعات فيتم إنجاز المشروع على أيديهم فينفلت الزمام من يد الإمام فيصير مأموراً بعد أن كان آمراً.

ثالثاً: نشوب الخلاف بين اثنين متنازعين على منصب الإمامة وتنحاز طائفة من وجهاء الجماعة إلى أحدهما فيساعدونه على التولية بإمكاناتهم فيصير هذا طيعا لهم رهن إشارتهم حيث يخاف أن يرجعوا عنه إلى غريمه.

هذه الأسباب مجتمعة وأشباهها هى التى صيرت منصب الإمامة جوادا يمتطى صهوته الوجهاء والأثرياء إلى الزعامة. ثم جاء رجال الأحزاب السياسية ينسجون على هذا المنوال وهذا التدخل، وإن كان فى الجنوب أكثر فإنه أيضا موجود فى الشمال على السواء، فالوزراء والنواب يتدخلون.

ثم جاء الطلبة الجامعيون يتحمسون للدفاع عن بيضة الإسلام أمام التبشير وعملوا على إنشاء منظمات الشباب المسلم، وعلى بناء المساجد فى الجامعات والكليات وأقاموا بها الصلوات وأحيوا معالم الله وأحسنوا للإسلام صنعا.

غير أنهم تغالوا فى إطلاق حرية أنفسهم فى التحدث عن الدين وأجازوا لأنفسهم الفتيا فى الأحكام، وهم على المستوى الابتدائى لا يستطيع أحدهم أن يقرأ من القرآن آية بغير لحن ولا حديثا من السنة بغير خطأ، وكل ما يمكنه أن يعتمد على الكتب الإسلامية المترجمة وعلى المعلومات التى اكتسبها من مدارس الاستشراق فى لندن وكندا وغيرها، وإذا لقى عالماً عربياً لم يعرف الإنجليزية أهانه ومنعه الكلام والإمامة وسماه رجعيا جاهلا لا يفهم لغة العصر.

نحن وإن كنا نحبذ مساعى المثقفين الجامعيين فيما يبذلون من جهود فى ميدان تفهم الإسلام والدفاع عنه.

فإننا لا نرى لهم حقا فى الإمامة والقيادة والفتيا مع وجود المتخصصين بجانبهم، وإن كانوا لا يجيدون الإنجليزية فليس القرآن والحديث باللغة الإنجليزية، فالأفضل تكريم أولئك المتخصصين والاعتراف بفضلهم بإسناد الإمامة إليهم.

أما تحقيرهم والتوهين بقدرهم فهو ضرب من ضروب تحقير ثقافة الإسلام والعمل على إماتتها بطريق غير مباشر والله يقول :

﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [الحج : ٣٠]..

﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج : ٣٢]..

والثقافة الإسلامية من شعائر الله ومن أفنى حياته فى إتقانها يجب تعظيمه.

* * *

• **التخصص فى الإسلام لا بد منه قبل الإمامة فيه :**

كل فقير يملك ما يكفيه هو وأهله لسد رمق الحياة، ولكنه إذا كان لا يستطيع أن يطعم خادماً ولا رفيقا ولا يقرى ضيفا فلا يسمى غنياً.

كل مسلم يستطيع أن يفهم مبادئ دينه الضرورية، ولكنه إذا كان لا يستطيع أن يستنبط الأحكام من النصوص، ولا يعرف الفرق بين الأصول والفروع فلا يسمى فقيها.

وقد أمر الله أن يسند أمر الإسلام إلى الفقهاء بقوله : ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلا قَلِيلا﴾[النساء : ٨٣].. وقوله ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة : ١٢٢]

وكل صناعة فى هذا العصر تأبى على من لم يتخصص فيها أن يدلى فيها برأى، فضلا عن أن يمارسها صناعة أو يتزعم فيها مهما كانت هذه الصناعة تافهة وضيعة، ومهما كان من يتدخل فيها رفيع القدر كامل العلم فى ميدان آخر.

فالقانون لا يتكلم فيه الأطباء، والهندسة لا يمارسها الفلاحون، والطب لا يجربه المحامون، والفقه لا يفتى فيه النحاة والبلاغيون، فكيف يجوز أن يفتى فى الإسلام من لا يحسن ولا يعرف مبادئ الدين الضرورى لنفسه، فضلا عن أن يعلم غيره؟؟.

فكيف يتكلم فى أمور الدولة وشأن الحكومة من لا يحسن أموره الخاصة فى بيته، وكثيرا ما يكون الرجل مبرزا فى صناعة أو موضوع، وهو لا يزال فى المستوى الابتدائى فى موضوع آخر أو صناعة أخرى؟

وكم رأينا عالماً متبحرا فى علم من العلوم وهو فى علم آخر مبتدئ أو جاهل مطلقاً، لذلك ندعو إخواننا الجامعيين أن يتعاونوا مع العلماء المختصين فى نشر الإسلام وتعاليمه، وأن يكون أحدهما للآخر كاليدين تغسل إحداهما الأخرى.

* * *

• العقبة الرابعة فى طريق التقدم :

والعقبة الرابعة التى تجب إزالتها فى سبيل التقدم والنهضة هى محاربة بعضنا بعضاً تحت عنوان: «محاربة البدع».

إن القيام بالعمل الإيجابى لإصلاح الحاضر وبناء المستقبل الباهر أجدى وأنفع من العمل السلبى.

إن الذين يهدمون قبل أن يبنوا إنما ينهكون قواهم وجهودهم على التلاشى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا والله يقول:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحـــــل: ١٢٥]

لو لم تكن الوثنية باقية والنصرانية قوية والعلمانية متفشية والمادية منتشرة ومعالم الصهيونية متعددة فى الروتارى والمافيا لجازت محاربة البدع دون الكفر وتكفير الصوفية دون الوثنية والنصرانية والعلمانية.

ولكن هذه الأعداء كلها متضافرة متكاتفة متعاونة على الإسلام وحده، فليس من الحكمة فتح ميدان آخر للقتال بين المسلمين زيادة على تلك الميادين السابقة.

إن الدعوة فى دولة إسلامية تحكم بشريعة الله قولا وعملا تختلف بكثير عن الدعوة فى مجتمع غير إسلامى وفى ميدان الصراع بين الأديان والآراء وهو ميدان أشبه شيء بدار الحرب ولأمر ما أوقف سيدنا عمر ﷺ الحدود بإزاء العدو إما كراهية أن تحمل المحدود حمية الشيطان على اللحوق بالكفار، وإما خوفا من أن يطمع فيهم العدو فيجرأوا عليهم بأنهم أذلوا بعضهم بإقامة الحد عليه.

فليس من مصلحة الإسلام اليوم أن نحاول تجربة وقائع الجمل وصفين والنهروان فلن يستفيد الإسلام من ذلك خيراً.

والنبى ﷺ يقول: «لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض».

تعالوا معى نكون مع السلفيين إذا كانت دعوتهم قائمة على حماية التوحيد من شوائب الشرك ووقاية الإيمان من شبهات الكفر، أو كانت قائمة على دعامة الكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح وكلنا نردد:

وكل خير فى اتباع من سلف

وكل شر فى ابتداع من خلف

ولا نكن مع أدعياء السلفية الذين لا يفهمون الدعوة قبل حملها وأدائها، والذين ينكرون فضل كل ذى فضل ويقيمون دعوتهم على الجور والإجحاف دون العدل والإنصاف، والذين يريدون أن يخالفوا لكى يُعرفوا وأن يبنوا أمجادهم على أنقاض أمجاد غيرهم.

تعالوا معى نكن مع الصوفيين طالما كان التصوف تزكية وتزهدا وتعبدا وتبتلا، وطالما كان التصوف شرحا لمقام الإحسان ثالث درجات الإسلام والإيمان.

ولا نكن مع أدعياء الصوفية الذين يتعبدون على الجهل والهوى لا على العلم والهدى ولا يعرفون الكتاب والسنة ولا يهتدون سبيلا.

أما شطحات الصوفية فهى قشور ليست باللباب وأعراض ليست بالجواهر فقد تكلم فيها المحققون ووجدوا لها تأويلات وعدوا ما لا يقبل التأويل فى المهملات، ونحن اكتفينا بما اكتفوا ووسعنا ما وسعهم لأنهم أسلافنا الذين هم أهدى منا سبيلا وأقوم قيلا وأقوى إيمانا وأكمل إسلاما.

لقد عرفنا الإسلام فى هذه البلاد على أيدى رجال صوفيين وتعلمنا العربية والثقافة الإسلامية من مشائخ صوفيين وتربينا تربية دينية من آباء صوفيين فلا نطيب نفسا ولا نقر عينا أن نجازى بركاتهم لنا باللعنات عليهم ونكافئ حقوقهم علينا بالعقوق والعصيان.. تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولنا ما كسبنا.

ونحن مع ذلك نعلم أن لكل عالم هفوة، ولكل داعية نزوة، ولكل صوفى غفوة وكبوة، لأنه ليس بمعصوم، يكفينا أن نأخذ ما صفا ونترك ما كدر، وكل إمام يؤخذ منه ويرد عليه بأدب واحترام دون احتقار واستهتار(*).

(*) لا شك أن نفوذ الطرق الصوفية قد بدأ فى الانحسار والانكماش بالتدريج، وذلك لأسباب منها:

١- ضعف الروح الدينية بقوة النفوذ العلمانية.

٢- انتشار نفوذ الدعوة السلفية التى هبت ريحها من البلاد السعودية فى أوساط المتعلمين فى الجامعات هناك.

ولكنى على يقين من أن التصوف سوف يبقى مع بقاء الإسلام.. وربما تقمص لونا جديدا وبقى فى مذهب فكرى علمى كما بقى ذلك فى مصر وغير مصر من البلاد العربية والإسلامية المتنورة.

وقد اعتنق التصوف فى السنغال هذا المذهب الآن، كما يبدو من مقالات المعاصرين ومؤلفاتهم.. ذلك لأن الغربيين أنفسهم من الإنجليز والأمريكان لا يزالون يبحثون فى التصوف.. ولا يزال الذين يدرسون فى العالم الإسلامى يقتفون آثارهم ويقتدون بالأوروبيين والأمريكان فى بحوثهم، وهم دائما يسعون سعيا حثيثا وراء ما يخططه المفكرون والكتاب الغربيون فى التصوف، بل ينظرون إلى ذلك نظرة ملؤها التشاؤم والتطير.. مع أن الأمر فى نظرى يحتمل غير ذلك، لأن الروح الدينية إذا تعمقت لابد حتما تنتج روح التصوف بأى حال من الأحوال.

• كلمة إلى أعداء الصوفية :

إن الذين ينسبون كل ما أصاب الإسلام من التأخر إلى الطوائف الصوفية وإلى البدع والخرافات التى تنسب إلى الطرق الصوفية قد تغالوا وتجاوزوا الحد.

نسألهم أين كان ملوك المسلمين وأغنياؤهم وفقهاؤهم والمحدثون منهم، فماذا كانوا يفعلون حين كان الصوفيون يؤخرونهم إلى الوراء؟ أليس لكل فريق من هؤلاء خطأه وصوابه؟! فكيف نشترك فى العمل ثم نحمل التبعة على أحد .

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١١٢]

والذين يقولون إن أصحاب الطرق هم أصحاب البدع والأهواء، يجب أن نستأصل شأفتهم من الإسلام ليتقدم المسلمون، قد نسوا أن دين النصارى كله بدع وضلالات وخرافات وهو دين أهل أوروبا وأمريكا ولا يزالون يتمسكون به حتى الآن، ومع ذلك لم يتأخروا فى مضمار الحياة، وكانوا يؤلهون عيسى يستغيثون به ويستمدون منه العون ويعبدون الصليب، ولم يمنع ذلك كله النصارى من العلم والعمل، والصوفية لم يصلوا إلى تلك الدرجة وإن كان بعضهم قد تكلموا فى وحدة الوجود والاتحاد والحلول فإن معانيها عندهم ليست كمعانى النصارى فى ذلك كله، وأهل السنة يردون كل ذلك ولا يقبلونه وكل يعمل على شاكلته.

كما نسى أعداء الصوفية أن اليابان أمة وثنية ومع ذلك لحقت بمقدمة الركب والحضارة، ونسوا أن الصين والروس أمتان ملحدتان، ومع ذلك صارتا من الدول الكبرى المنتجة المرهوبة الجناب المرفوعة الرأس، فحذار ثم حذار من محاربة الإسلام نفسه بمحاربة ما يمت إلى الإسلام بصلة.

ولقد صحب التصوف وطرقه مسيرة الدعوة الإسلامية منذ القرن الثالث الهجرى وهو من القرون الأولى التى غاش فيها السلف الصالح ولم تمنع هذه الطرق الإسلام من أن يزدهر بل كان رجال الطرق من زعماء الحضارة والمدنية وقواد الركب ومؤسسى الدول، وإن كان الأمر مدا فى ناحية وجزرا فى ناحية أخرى فتلك الأيام يداولها الله بين الناس من أيام النبى والصحابة والتابعين وأخبارهم مذكورة ومشهورة فى بطون كتب التاريخ فى كل مصر وكل قطر، ومن العدل إيتاء كل ذى فضل فضله:

﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]

وإذا كان للصوفية سيئات فى البلاد الأخرى، فإن لها حسنات فى غرب أفريقيا قبل الاستعمار وطيلة أيام الاستعمار عند انتشار التبشير، ومن علامات ذلك ما نقله الشيخ محمد الثانى كافنغا الكنوى فى مرآة الحق عن الشيخ أحمد سيكرج المغربى:

لو لم تكن طرق الأذكار منتشرة

لعمر الكفر بالتبشير أوطانا

ولا يـــزال بهـــا الإســـــلام منتشـــــرا

بالحـــق منتصـــرا قـــد فـــاق أديانـــا

وإن أعـــانت ذوى التبشـــير شـــــرذمة

قـــــد صيروها لهـــدم الدين أعوانـــــا

رامت قضاء على الطرق التـــى نصـــرت

ليخلـــــو الجـــــــو للتبشير إعلانـــا

فقام بالهـــدم باســـم الـــدين شرهـــم

لهضـــم جانبه ظلمـــا وعـــــدوانـــا

هذا فيما كان من جانب التبشير الصليبى.

أما ما كان من جانب الإلحاد والعلمانية فيقول الأستاذ حبيب فى كتابه «الاتجاهات الحديثة فى الإسلام» بعد كلام طويل فى انتشار العلمانية:

«العلمـاء أنفسـهم قـد سـاهموا فـى نشـر العلمانيـة لأن أثـر الجمعيات الصوفية هو الذى حارب بصورة رئيسية الروح العلمانية بين الطبقات المثقفة فى العالم الإسلامى، والعلمـاء بإضعافهم هـذا الأثر لم ينجحوا فى إنشاء أثر آخر مكانه إلا بمقدار ما ساهموا به فى المجتمعات الدينية الجديدة»[1].

---

(١) ص ٧٨.

هـذا رأى كاتـب أوروبـى لكتابـه مكانـة مرموقـة فـى المجتمـع العربـى الإسـلامى، نسـأل الله أن يلـهمنا الصـواب ويهـدينا إلى الصراط المستقيم.

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

[الحشـــــــــر: ١٠]

* * *

• المرأة فى المجتمع النيجيرى :

إذا تأملنا مكان المرأة فى مجتمع كل أمة من أمم العالم وجدناه نصف المجتمع، أو ما يزيد على النصف، بدليل كثرة النساء وزيادة عددهن على الرجال ولو لا ذلك لما تسنى لرجل واحد أن يتزوج مثنى أو ثلاث أو رباع، فالمرأة ركن كبير من أركان النهضة والتقدم.

فمن أصلح شأنها بنتا وأختا وزوجة وأما، فقد أصلح نصف المجتمع، ومن أهمل شأنها فقد عطل طاقة عظيمة من طاقات الحياة قال حافظ إبراهيم :

الأم مـدرسـة إذا أعـددتها أعـددت شعبا كامـل الأعراق

وقبـل أن نـتكلم فـى وضـع المـرأة الحـالى يجـب أن نلتفـت إلى الـوراء قليلا لنعـرف وضـعها قبـل الإسـلام وقبـل الحضـارة الغربيـة ونقول :

كانت المرأة تعتبر خادمة تخدم زوجها فى ذل وانكسار وليس لها حق التصرف فيما تملك بدون إذن زوجها.

فهى فى القرية تعصر الزيت من حبوب النخيل وتلتقط الحبوب والفواكه فى البستان وتجمع الحصاد وتدرسها وتطحنها وتعجنها وتهيئها للأكل أو للبيع، وتصنع الخزف من الطين اللازب كل ذلك لخدمة الزوج والأولاد.

وفى المدينة تغزل الأقطان وتنسج الأقمشة أو تتاجر لتسلم الأرباح كلها للزوج المسئول عن المستلزمات المنزلية، لهذا يعتبر تعدد الزوجات مزية للرجال ويقاس ثراء الرجل بمقياس كثرة زوجاته.

فالطبقات المتوسطة أو الغنية يكثرون الزوجات إلى بضع عشرات، وللملوك حق الإكثار إلى مئات - كما كان يجوز ذلك عند بنى إسرائيل.

وللزوجة الأولى الكبيرة «ربة البيت» حق السلطة على الباقيات وكلهن فى خدمة أزواجهن.

ولما جاء الإسلام تحسنت حالة المرأة بأن خفف عنها التبعات وحملها الرجال بقوله: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]..وفرض لهن حقوقا على الرجال بقوله: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]

فأصبح الزوج هو المسئول عن لوازم المعيشة بحكم الرئاسة على الأسرة، ولكن بعض المسلمين خصوصا فى الشمال قد تغالوا فى هذه حتى صيروا النساء كسالى من وراء حجاب، ليس لهن

عمل غير تهيئة الطعام والحمل والوضع والرضاعة والحضانة، وقليل منهن من يعرفن القراءة والصلاة والطهارة ولا يخرجن إلا ليلا بحكم الحجاب ولا يحضرن الأسواق.

وإنما يلزم الرجل أن يأتى السوق ليستحضر ما يلزم أو يرسل خادماً لذلك، أما فى الجنوب فقلما يحضر الرجال الأسواق بل هى للنساء غالبا، ولهذا كانت اقتصاديات البلاد بيد نسائها، ولكنهن يسلمنها لأزواجهن.

ولما جاءت المدنية الغربية سهلت عليهن الاندماج فى التقاليد الأوروبية، من كون المرأة شريكة الرجل أو قرينته فى التعليم والتوظيف.

فدخلت البنت المدرسة وتخرجت ونالت وظيفة فى الإدارة الحكومية، أما فى تعدد الزوجات فقد حدد الإسلام الاكتفاء بالأربع فتمسك بذلك المسلمون الشماليون وبعض الجنوبيين، غير أن طائفة منهم يحتالون فى الزيادة تحت جواز ملك اليمين بالسرارى والإماء، ومنهم من يتخذ منهن أخدانا يذهب إليهن خارج البيت أو خارج البلد.

ومن العجب أن نرى بعض اليرباويين فى مقاطعات أبادن وأبيكوتا من يستحل الزيادة على الأربع، بحجة أن النساء اللاتى توفى عنهن رسول الله ﷺ تسع، وأن هذا العدد بالذات يتفق مع جمع ما فى قوله تعالى: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء: ٣].. فى حيز واحد، (اثنتين وثلاثة وأربعة، صار تسعة).

فرددنا عليهم بأن ذلك من قلة فهم العربية، إذ ليس معقولا أن يتزوج الرجل اثنتين مرة واحدة، ثم ثلاثا مرة واحدة، ثم أربعا مرة واحدة.

ويحتج بعضهم بأن المرأة إذا كبرت وصارت لا أرب فيها لزوجها يجوز أن يمسكها رحمة بها، ويتزوج أخرى، كما فعل النبى بسودة حين أمسكها عند كبرها ولم يطلقها فوهبت يومها للسيدة عائشة ـ رضى الله عنهما ـ.

فرددنا عليهم بأن الزيادة على الأربع من خصوصيات الرسول ﷺ بنص القرآن القائل: ﴿ خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ [الأحـــزاب: ٥٠]

ويقول النبى ﷺ لغيلان حين أسلم وتحته عشر نسوة فقال له: «اختر منهن أربعا» حديث متفق عليه.

فتاب عدد كبير من أهل أبيكوتا ورجعوا عن هذا الاعتقاد الفاسد عام ١٩٤٤م وفيهم من له فى المجتمع الإسلامى مكانة مرموقة، تصدقنا عليه بستر اسمه هو وأتباعه، غفر الله لنا ولهم جميعا، وهدى الله من لا يزال على هذا الاعتقاد حتى يهتدى للصواب. ولا يزال علماء مدينة أبادن يجاهدون من زاد نساؤهم على أربع ولكن أكثر الناس لا يقبلون.

* * *

• المرأة المسلمة والتعليم :

أوجب الإسلام على أمهات المؤمنين تلاوة القرآن وتعلم العلوم فى بيوتهن وهن من فرض الله عليهن الحجاب، وكيف بمن لم يفرض عليهن كما سيأتي بيانه فى الحجاب قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾

[الأحزاب: ٣٤]

واشتهرت السيدة عائشة بالعلم والفتيا، وكانت من الستة المكثرين لرواية الحديث عن رسول الله وقال فيها الرسول ﷺ: «خذوا نصف دينكم من هذه الحميراء».

وهناك حديث: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة».

وحديث: «نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين».

وطلب رجل من النبى ﷺ أن يزوجه امرأة ولم يجد ولو خاتما من حديد، ولكنه يقرأ سورة البقرة من القرآن فقال له النبى ﷺ: «انطلق فقد زوجتكها بما معك من القرآن فعلمها عشرين آية» رواه البخارى.

واشتهر فى العلم عدد كثير من النساء المسلمات فى مختلف العصور والعواصم الإسلامية.

ويقول الشيخ عبد الوهاب الشعرانى فى «اللواقح القدسية» بعد كلام طويل فى جواز خروج النساء إلى الصلاة والوعظ ما نصه:

«على أن نساء هذا الزمان قد عمهن الجهل حتى صار بعضهن يقلن ليس على الصبيان صلاة إنما ذلك للعجائز، وبعضهن يقلن إنما تجب الصلاة على من حجت، وبعضهن يقلن ليس على نساء الفلاحين صلاة وتبقين جنبا ليلا ونهارا لا تغتسلن ولا تصلين».

ولذلك كان أحمد الزاهد يخص بوعظه النساء فى أكثر أوقاته[1].

وكانت النساء يحضرن مجالس الوعظ أيام ابن فودى، فكتب إليه الشيخ مصطفى البرناوى ينهاه عن ذلك بقوله :

عليك منا تحيات مباركة
شممن مسكا وسكا من يلاقونا
أيا ابن فودى قم تنذر أولى الجهلا
لعلهم يفقهون الدين والدنا
وامنع زيارة نسوان لوعظك إذ
خلط الرجال بنسوان كفى شينا
لا تفعلن ما يؤدى للمعايب إذ
لم يأمر الله أمراً كان يؤذينا
إن الممات وما بعد الممات وجهلا
بالعواقب وعظ كان يكفينا

---

(١) ص ٦٢ لواقح الأنهار المقدسة.

فرد عليه عبد الله بن فودى بالجواب الآتى :

يا أيها ذا الـــــذى قد جاء يرشدنا

سمعا لـما قلـت فاسمـع أنت مـا قلنا

لسنا نخالط بالنســـوان كيـف وذا

كنـــا نحـــذر أن ذا قلـت سلمنا

إن كان ذلك ولكن لا أسلـــم أن

يتركـــن بالجهـل هملا كـان يؤذينا

إذ ارتكاب أخف الضر قد حتمـا

يكفر الجهـــل إن ذا كـــان عصيانا

وقد اشتهرت نساء عالمات فى نيجيريا قبل ابن فودى وبعده منهن أم هانئ بنت محمد العبدوسى ومنهن رقية جدة ابن فودى ومنهن عائشة بكشنى من كاشنة.

ومن الأسف أن يعتبر بعض الناس الزواج المبكر فريضة إسلامية على البنت يجب على الأب أو الوالى أن يسرع إلى أدائها فى سن المراهقة، فقطعوا بذلك طريق تعليمها بالزواج المبكر، فانتقلت وهى صغيرة من بيت أبيها وأمها إلى بيت زوجها لتبدأ الحياة الزوجية قبل البلوغ[1].

---

(١) وهناك أحاديث ضعيفة يعتمد عليها الناس فى الزواج المبكر، ولكن الحديث الصحيح القائل ((لا تنكح البكر حتى تستأذن)) أقوى من ذلك ولا يستأذن من لم يبلغ سن الرشد ويؤيد ذلك ما ورد فى اليتامى من قوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى..﴾ إلى آخر الآية [النساء: ٦].

كل هذا باسم الإسلام وإن كانت هذه البنت بدأت التعليم دينيا أو دنيويا فإن الزواج يقطع عليها الطريق.

فبذلك قلت النساء المتعلمات اليوم فى شمال نيجيريا وكثرت المتعلمات فى الجنوب، ولعل الأمر قد بدأ يتحسن بالتدريج شيئا فشيئا، فعسى أن يتقدم مكان المرأة فى أنحاء الشمال كلها.

* * *

• **المرأة المسلمة والحجاب :**

لا يختلف اثنان أن الإسلام أمر المرأة المسلمة بالتستر والتصون وعدم التبرج وأمرهن بغض البصر وعدم إبداء زينتهن للرجال وإدناء جلابيبهن وضرب خمرهن على جيوبهن، وأمر الرجال أيضاً بغض البصر عند الدخول على النساء مفاجأة بل سؤالهن الأشياء من وراء حجاب.

ومن هنا تمسك الناس بكلمة الحجاب، ثم اختلفوا فى معنى الحجاب هل هو ستر المرأة عورتها عند خروجها وكلها تقريبا عورة؟ أم عدم خروجها نهارا بل ليلا أو نحو ذلك؟ وهل الحجاب نوعان أم نوع واحد؟ وهل هناك ما يخص نساء النبى وما يعم نساء المؤمنين؟

ولقد بذلنا جهدنا فوجدنا أن الحجاب ثلاثة أنواع ولا يجحد ذلك إلا مكابر.

النوع الأول: حجاب الوجه بلبس القناع أو النقاب أو النصيف أى الخمار.

والمطلع على نصوص التوراة الحاضرة يجد أن نساء أنبياء بنى إسرائيل كن يلبسن القناع، بل جاء فى كتب الأخبار والقصص أن النبى يوسف - عليه السلام - كان يلبسه لئلا يفتتن النساء بجمال وجهه كما فى قصة اللاتى قطعن أيديهن.

وكان نساء العرب يلبسنه ويسمونه النصيف أو الخمار، حيث ورد فى قصيدة النابغة عند وصفه المتجردة امرأة النعمان وقال:

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

أى كانت المتجردة تمر بين يدى النعمان وهو فى حاشيته فسقط القناع من وجهها، فانحنت فأخذت القناع بيد واحدة وسترت وجهها بيد أخرى لئلا يرى الناس وجهها.

فحجاب الوجه بالقناع ليس من تعاليم الإسلام إذ لم يرد بذلك نص لا فى القرآن ولا فى الحديث، بل كانت عادة جارية بين نساء العرب قبل الإسلام.

ولما جاء الإسلام لم ينه عنها ولم يأمر بها فمن شاء أخذ بها ومن شاء تركها لا أكثر ولا أقل. وقد جاءت النساء إلى النبى عام الفتح يبايعنه وفيهن هند زوجة أبى سفيان وهى مقنعة، وجعلت تسأل النبى مسائل حتى عرف النبى أنها زوجة أبى سفيان وذلك يوم إسلامها.

النوع الثانى: والنوع الثانى غض البصر وعدم التبرج بالزينة وستر الجسد غير الوجه واليدين ونص ذلك فى القرآن ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ

إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ • وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾[النور: ٣٠ - ٣١]، وأوضح المفسرون ذلك بالوجه واليدين لقول النبى ﷺ لأسماء بنت أبى بكر وهى زوجة الزبير وأم عبد الله بن الزبير والمسماة ذات النطاقين حين دخلت على أختها عائشة وعليها ثياب رقاق - غير ساترة لجسدها - قال لها رسول ﷺ: «يا أسماء.. إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يحل أن يُرى منها غير الوجه واليدين». رواه البخارى ومسلم.

وفى البخارى أن الرسول فى حجة الوداع أردف الفضل بن العباس خلفه يوم النحر وفيه أن امرأة خثعمية أتت تستفتى النبى ﷺ سافرة الوجه ولم يأمرها بالحجاب.

وروى مسلم أن النبى صلى العيد ثم خطب ولما فرغ مضى حتى أتى النساء فوعظهن وذكرهن فقال: «يا معشر النساء تصدقن فإنكن أكثر حطب جهنم»، فقالت امرأة من وسط النساء سفعاء الخدين: لم يا رسول الله؟ قال: «لأنكن تكثرن الشكاة وتكفرن العشير..» ووصفها أنها سفعاء الخدين دليل على عدم غطاء وجهها.

وجاء فى نيل الأوطار أن المرأة تبدى من مواضع الزينة ما تدعو الحاجة إليه عند مزاولة الأشياء والبيع والشراء والشهادة فيكون ذلك مستثنى من عموم النهى عن إبداء مواضع الزينة.

أما لبس القناع فلم يرد فيه نص إلا ما حمله بعضهم على الآية وليست بحاملته قال القرآن: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى

جُيُوبِهِنَّ﴾[النور: ٣١].. وقال: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾[الأحزاب: ٥٩] أراد بعضهم أن يجعلوا الآيتين معنى واحدا.

واختلفوا فى معنى الجلباب فمنهم من فسره بمقانع ومنهم من قال إنه ملحفة، ومنهم من قال إنه إزار ولعل الاختلاف نشأ من اختلاف ما تلبسه المرأة فى مختلف البيئات وقال فى المصباح: الجلباب ثوب أوسع من الخمار ودون الرداء.

ويؤخذ من ذلك جواز كون القميص الذى تلبسه النساء اليوم جلبابا وإليه ترجع الآية فى سورة الأحزاب والخمار ما يوضع على الرأس ويسدل إلى الجانبين وإليه ترجع الآية فى سورة النور.

النوع الثالث: الحجاب المطلق الذى خص الله به النبى ﷺ وهو القرار فى البيت وعدم دخول الرجال إليهن وسؤالهن المتاع من وراء حجاب وأن هذا من خصوصيات نساء النبى كتحريم نكاحهن لأحد من بعد النبى بدليل قول تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾.. إلى قوله ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾[الأحزاب: ٣٢ - ٣٣] ثم قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾[الأحزاب: ٥٣].. ثم قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾.

وفى الإصابة لابن حجر: أن النعمان بن أبى الجون الكندى لما عرض على رسول الله ابنته أسماء وارتضاها النبى زوجا له، فلما حملت إلى رسول الله صرفه الله عنها بكيد النساء ولم يبن بها فأقامت بالمدينة لا تبرحها حتى إذا كانت فى عهد سيدنا عمر تزوجها المهاجر بن أبى أمية فأفزع عمر أن إحدى أمهات المؤمنين تزوجت بعد رسول الله فأرسلت إليه تقول: والله ما ضرب على الحجاب ولا سميت أم المؤمنين.

* * *

• **الحجاب سد الذريعة :**

ليس حجاب المرأة دينا يتقرب به المسلم إلى الله فى حد ذاته وإنما هو الذريعة إلى الزنى وهو دفع الوسيلة التى تؤدى إلى المفسدة، والأخذ بالوسائل التى تؤدى إلى المصالح، وقد اعتبره مالك وأحمد من أصول التشريع.

ومن سد ذرائع الزنى ما هو قطعى كخلوة الرجل غير ذى محرم مع المرأة الأجنبية ذات جمال فى مكان ليس بينهما حجاب ولا رقيب، فيرجح أن يقع الزنى وكذلك خروج المرأة لحاجة لها ليلا.

ومنها ما هو ظنى كخروج المرأة إلى السوق لحاجتها نهارا أو ذهابها إلى المسجد للصلاة نهارا فمجال الزنى فى ذلك ضيق محصور.

فبناء على ذلك فإن منع خروج النساء إلى الأسواق نهاراً فى بلاد هوسا والسماح لهن بالخروج ليلا ليس سدا لذريعة الزنى فقد شاهد الناس فى خروجهن مشاهد فظيعة مما يندى له جبين الحياء عندما تتعرض النساء للرجال فى الأزقة ولا يرددن يد لامس فاجر زان.

* * *

• **النساء المسلمات فى بلاد يوربا والمطالبة بحقهن فى العبادات:**

وقال رسول الله ﷺ: «رحم الله نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء من التفقه فى الدين» رواه البخارى.

كانت مدينة لاغوس عاصمة نيجيريا ملتقى الركبان وميدان الصراع بين المذاهب والأديان، وكذلك البلاد الجنوبية من أبيكوتا وأجبودى وأبادن، وكان المسلمون فيها يقاومون أمواجا من الجملات التبشيرية ويستخدمون فى المقاومة سائر الوسائل.

وإذا كانت الأحداث هى التى تخلق التشريع والتقنين وقد قال عمر ابن عبد العزيز: «تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور».

اضطر الفقهاء فى بلاد يوربا إلى السماح للنساء بالذهاب إلى المساجد للصلوات الخمس ولصلاة الجمعة ولصلاة العيدين للأسباب والدلائل الآتية :

كانت نساء النصارى وأولادهم يخرجون أيام الأحد إلى كنائسهم زرافات ووحدانا ويتعرضون للنساء المسلمات إن دينهن لا يجيز لهن ذلك مع أن هؤلاء النساء يشاركن الرجال فى الأسواق وسائر الميادين الاجتماعية فكيف لا يشاركنهم فى عبادة ربهم؟

فأخذت النساء المسلمات تسألن: هل الإسلام هو الذى حرم ذلك عليهن بنص صريح؟ وإذا كان كذلك فلماذا؟ أم هذا فقط رأى ارتآه الفقهاء لسد الذريعة؟

ومن هنا بدأ الاستفتاء والتحقيق والمراجعة والتدقيق وكل ذلك أدى إلى النتائج الآتية:

إن الإسلام لا يفرق بين الرجل والمرأة فى العبادات كلها بدليل قوله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: ٧١] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب: ٣٥] وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]

وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ

وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[الممتحنة: ١٢] وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا﴾ [الممتحنة: ١٠]

لهذه الآيات كلها أفتى علماء لاغوس عام ١٩٤٧[١] بجواز حضور النساء للصلوات الخمس ولصلاة الجمعة بعد تخصيص مكان مناسب لهن فى المسجد وبعد ثبوت نص الحديث بجواز ذلك كما فى الأحاديث الآتية:

• المرأة المسلمة والمسجد:

روى الشيخان عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله».

وعن زينب امرأة عبد الله قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: «إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمسن طيبا» رواه مسلم.

وعن أم هانئ قالت: «ما أخذت سورة ق، إلا على لسان النبى ﷺ كان يخطب بها على المنبر يوم الجمعة» متفق عليه.

وعن أم عطية قالت: أمرنا رسول الله فى الفطر والأضحى أن نخرج العواتق والحيض وذوات الخدور ولكن الحيض يعتزلن الصلاة ويشهدن الخير ودعوة المسلمين قلت: يا رسول الله.. إحدانا

---

(١) ومن هؤلاء العلماء الحاج أبو بكر أوتن، والحاج مصطفى أيكيمدى والأستاذ سراقة أيوديجى من علماء أنصار الدين.

لا يكون لها جلباب! قال: «لتلبسها أختها من جلبابها». رواه الخمسة.

وعن أبى هريرة قال رسول الله: «خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها. وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها» وعن أبى مالك الأشعرى قال: «كان النبى يصف الرجال أولا ثم الغلمان خلفهم، ويجعل الرجال قدام الغلمان والغلمان خلفهم والنساء خلف الغلمان» رواه أبو داود وأحمد، وفى الحرم النبوى باب خاص للنساء من أيام الرسول ﷺ.

والذى يظهر من هذه الأحاديث أن النبى لم يكن يمنع النساء من حضور المسجد لصلاة الجماعة فى فرض الصلوات وفرض الجمعة وسنة العيدين، فليس بعد ذلك لأحد من الفقهاء كلام ينسخ به ما كان عليه النبى فى حياته إلى أن انتقل إلى جوار ربه.

وكل ما ورد فى أفضلية صلاة المرأة فى بيتها لا يحرم صلاتها فى المسجد، أما قول عائشة ﷺ فى الموطأ:

«لو أدرك رسول الله ما أحدث النساء لمنعهن المسجد». ففى سبل السلام «إنه لا يدل على تحريم خروجهن ولا على نسخ الأمر به بل فيه دليل على أنهن لا يمنعن لأنه لم يمنعهن النبى، بل أمرنا بإخراجهن فليس لنا أن نمنع ما أمر به».

«قلت» والسيدة عائشة ﷺ ليست فى درجة رسول الله ﷺ وليست معصومة من الخطأ وكان لها من الآراء فى السياسة وفى خروجها لغزوة الجمل اجتهادات خاطئة باعتراف الصحابة كلهم.

فقد تقدمت اليوم نساء يوربا المسلمات على نساء هوسا فى التعليم، وفى العبادات بفضل عدم التزامهن الحجاب المطلق الذى هو خاصة بنساء النبى وجعله علماء هوسا فرضا وكادوا يكفرون من لا يحتجب نساؤه ومنعوا الصلاة خلفه، وقل لهم هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.

* * *

• **العاقبة حتما لانتصار المرأة:**

إذ كنا نساير ونسير متابعين للعواصف والتيارات، وكنا نواجه الحقائق الواقعة نجد أن المرأة صارت تنتصر فى كل بلد من البلدان الشرقية والإفريقية فى محاولتها أن تشارك الرجل فى توجيه الشئون وتتعاون معه جنباً إلى جنب فى جلب السعادة.

فالمرأة اليوم فى جميع أنحاء العالم تسعى لاستكمال ما كان ينقصها من التربية والتعليم، وفى كل بلد مدارس وكليات لتخريج المعلمات والممرضات.

ففى السنغال التى هى كنيجيريا فى الإسلام جعلوا الحجاب غير ضرورى كما فى مصر وفى المغرب وكثير من البلدان الإسلامية المتنورة دينا ودنيا، وإن كان الحجاب لا يزال باقيا فى السعودية وسوريا والعراق والكويت كما فى شمال نيجيريا وإيران، فإن الزمان كفيل بما يعود للمجتمع بالخير والسعادة والتقدم مع التزام الآداب الإسلامية التى لا غلو فيها ولا تطرف فالبقاء للأصلح كما يقولون.

غير أن أغلب المسلمين يديرون ظهورهم إلى الغاية التى يقصدونها ويتوجهون إلى الوراء ثم يسيرون القهقرى إلى الغاية وهم يرددون كلمة كلا ثم كلا.. حتى يصلوا الغاية وهؤلاء ليسوا رجعيين ولكنهم قهقريون.

* * *

• **المسجد الجامع وخطبة الجمعة قوتان يجب الانتفاع بهما:**

كثرت الكنائس فى نيجيريا حتى قاربت مليونا وتعددت بتعدد مذاهبها من كاثوليكية وإنجليكانية وميثوديسية وإفريكانية غير أن جميعها فى مختلف القرى والمدن تدين بطاعة الولاء لرئاستها فى لاغوس العاصمة الفيدرالية.

وكانت العداوة بين جميع الكنائس المتعددة كالكاثوليكية والبروتستانتية وما تفرع منها سافرة بقدر ما بين النصرانية نفسها مع سائر الأديان الأخرى.

ومع ذلك ظلت رجال هذه الكنائس منذ استقلال البلاد تعقد مؤتمرات وندوات لتوحيد صفوف الكنائس تحت راية واحدة.

ومن قبل كان المسلمون يباهون النصارى بأن المساجد كلها واحدة لا عداوة بينها، وأن المسجد الجامع الكبير فى كل بلد يضم تحته سائر المساجد الصغيرة كما يضم الرأس سائر الأعضاء.

وكان المذهب المالكى لا يجيز تعدد الجمعة فى البلد الواحد اللهم إلا إذا ضاق المسجد على المصلين ولم يمكن توسعته حينئذ يجوز إقامة الجمعة فى مسجد ثان فمهما تعددت المساجد فالرئاسة

للعتيق، لهذا كان سفراء الدول العربية والإسلامية يصلون فى جامع لاغوس الكبير دون غيره.

ويزيد عدد أئمة المساجد الصغيرة التى تقام فيها الصلوات الخمس والمساجد الكبيرة التى تقام فيها الجمعة على مليون فى طول البلاد وعرضها وكذلك عدد الأئمة الذين يؤمون فيها، وكان جميعهم على مذهب واحد لا خلاف بينهم فى العقيدة والمذهب غير أنه لا تعارف بينهم ولا تعاون بل رضوا بأن يعمل كل واحد على شاكلته لذلك ظلوا أشتاتا متفرقين.

وزاد الطين بلة ما حدث أخيرا من إنشاء مسجد جديد لإزالة البدعة إلى جانب مسجد قديم فيه بدعة الطريقة الصوفية كما مر من شأن جماعة الشيخ أبى بكر غومى هذا كله واقع فى الولايات الشمالية التى كانت تعتبر جزءاً من العالم الإسلامى، ويبلغ المسلمون فيها أربعين مليونا خصوصا فى ولاية برنو وكانو وسوكوتو وكادونا وغنغولا وكواره، وما حول النيجر فى بلاد نوفى من بقايا النوبة.

فتصور أيها القارئ مدى الطاقة والفرصة والقوة التى يحصل عليها المسلمون لو أنهم أحصوا هذه المساجد وربطوها فى سلك واحد وتعارف أئمتها وتعاونوا جميعا على البر والتقوى وعلى ما يعود النفع العظيم إلى البلاد وإلى الإسلام والمسلمين كما كانت قساوسة النصارى على التعارف والتعاون والاتحاد فى جميع كنائس البلاد.

أما فى الجنوب فى بلاد يوربا فقد استطاع الأئمة أن ينتظموا فى سلك واحد تحت راية رابطة الأئمة والعلماء واستقر مقامه فى مدينة أبادن منذ ١٩٦٤م على شكل نقابة للنظر فى شئون أنفسهم وللقيام بواجبهم نحو الإسلام ونحو الأمة وللبحث فى وسائل تعليم أبنائهم حتى يتفرغوا لمهنة الإمامة بعد أن علموا يقينا أن الإمامة تكون بالوراثة فى بيوت الأئمة.

وكانوا يجتمعون لإثبات أوائل الشهور القمرية خصوصا رجب وشعبان ورمضان، كما كانوا يجتمعون لفض النزاع الذى ينجم أحيانا بينهم عند تولية الإمامة.

ولما علم رجال السياسة بما لهذه الرابطة من الأهمية البالغة جعلوا يحسدونها ويريدون أن يسيطروا عليها ليديروها وفق إرادتهم وطوع إشارتهم، ولما خاب سعيهم جعلوا يضعون أمامها عراقيل وعقبات ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف : ٢١]

والإمام فى بلاد يوربا رئيس كبير للمسلمين خصوصا فى البلاد التى ليس ملوكها وأقيالها مسلمين له قول مسموع ورأى متبوع ومكانة مرموقة لأنه يجتمع لديه المسلمون كل يوم جمعة ويستمعون إلى توجيهاته وإرشاداته سواء أثناء الخطبة أو خارج الخطبة، لهذا يحسب المسئولون له ألف حساب فى جميع حركاته وسكناته، ولو استطاع أئمة بلاد هوسا أن ينتظموا كذلك فى سلك واحد لكان خيراً لهم وللإسلام.

ولكن ذلك فيما يظهر من الصعوبة بمكان لأن أئمة البلاد هناك تحت أمرائها وهم ليسوا أحراراً فى تصرفاتهم الاجتماعية إلا إذا أشار الأمير بشيء من ذلك.

* * *

• **خطبة الجمعة طاقة مهملة:**

الخطبة ركن هام من أركان الجمعة بل هى جوهر الجمعة ولبها ومن أجل الاستماع لها سقطت ركعتان من ركعات الظهر الأربع:

والخطبة وعظ وإرشاد ونصح وتذكير من القرآن والسنة وكلها لتوعية الأمة وتوجيهها لما فيه سعادتها الدنيوية والأخروية.

وقد ذهب بعض الفقهاء إلى لزوم كونها بالعربية، سواء أكان القوم عربا أو عجما كالإمام مالك.

وذهب الآخرون إلى جواز كونها بالأعجمية إن كان القوم عجما منهم أبو حنيفة ونحن نرى الجمع بين الأمرين أن تلقى بالعربية ثم تترجم إلى لغة القوم ليفهموها وليستفيدوا منها لأنها وعظ وتذكير لهذا قال القرآن: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]

فلا فائدة فى الوعظ أو التذكير الذى يوجه إلى قوم بغير لغتهم وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٩]

فخطبة الجمعة درس أسبوعى وتوعية عامة بالأحداث الجارية لاتخاذ التدابير اللازمة لها فمن مثل هذه التوعية كالتوعية التى يرتوى منها النصارى فى كل أسبوع يوم الأحد امتلأوا صحوة وانتباهاً.

وحيث قال النبى: «من ترك ثلاث جمع متواليات من غير عذر طبع الله على قلبه» إنما قال ذلك لأنه يطبع الله على قلبه بعدم سماعه الخطبة.

وقوله: «لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أوليختمن الله على قلبوهم، ثم ليكونن من الغافلين» ذلك لأنه إنما تحصل الغفلة والختم على القلوب لاجتناب الوعظ وذكر الله.

وقد بدأ التطور فى بلاد يوربا فصار الأئمة يترجمون الخطب قبل إلقائها أو أثناء إلقائها ليستفيد الحاضرون حيث إن المتعلمين الذين يستفيدون من إلقائها بالعربية مباشرة أقل من عشرة فى المائة، فهل من مصلح يأخذ بأيدى إخواننا الشماليين حتى يستغلوا خطبة الجمعة لمخاطبة أسبوعية لجمهور المسلمين؟

* * *

• يجب تجديد الخطبة على حسب الأحداث:

لليهود والنصارى أماكن خاصة يجتمعون فيها للتباحث عما يهمهم فى أمور دينهم ودنياهم ولهم جمعيات سرية متنوعة من ماسونية وصهيونية يملون فيها بروتوكولاتهم، ثم إنهم فى صوامعهم وبيعهم وكنائسهم يكونون على التفاهم التام لأحوالهم

لأنهم ظلوا يباشرون طقوس دينهم بلغة التفاهم بينهم فى أى بلد كانوا.

بالفرنسية فى بلاد فرنسا والإنجليزية فى بلاد الإنجليز وبالزنجية فى بلاد أفريقيا، وذلك مما جعل التفاهم والاتحاد والتعاون بينهم سهلا ميسوراً.

أما نحن المسلمين فليس فى شعائر ديننا الحنيف سر محجوز عن فرد أو جماعة وليس لنا جمعيات سرية للتآمر على غيرنا من أصحاب الأديان الأخرى.

والطوائف الصوفية لا يهمها إلا تربية النفس ومجاهدتها وتزكيتها بالذكر والصيام والصلاة.

وعندما التزم الإسلام اللغة العربية فى عباداته ونسكه إنما يهدف إلى توحيد ثقافة المسلمين من كل جنس وقبيل فيدخل أى مسلم أى مسجد فى ديار الغربة فيستطيع أن يصلى فيه باللغة العربية كما يفعل فى بلده، وليس كذلك الأمر فى اليهودية والنصرانية، ويهدف الإسلام إلى توحيد الشعور فى الآلام والآمال بين المسلمين بتوحيد لغة التعبد كتوحيد القبلة وتوحيد الله بالعبادة.

ذلك كله هو الذى حمل الفقهاء على التزام العربية فى الخطب المنبرية، ولكن ذلك ينفع العرب فى بلادهم فإنهم يستفيدون منها فيغيروا أوضاعهم، أما غير العرب فإنما يلزمهم أن يستعملوا ما يستفيدون منه من اللغات.

ولو أن خطباء المنابر فى نيجيريا شعروا بواجبهم فى تجديد الخطب المنبرية فى الجمع لاستطاعوا أن يجعلوا من خطبهم الأسبوعية دروسا دينية اجتماعية سياسية اقتصادية تبصر السواد الأعظم من المسلمين مالهم من الحقوق أو عليهم من الواجبات نحو أنفسهم وأمتهم وحكومتهم ولتغير الوضع الذى هم عليه الآن إلى أحسن وضع وأفضل. والقرآن يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]

وعلى أئمة المساجد وخطبائها أن يحولوا الجامع إلى مدرسة لتعليم الكبار كالجامعات الحديثة التى تعنى بتعليم الشباب والتعليم من المهد إلى اللحد.

وعليهم أن يحولوا الجامع برلماناً لإرشاد الحكومة إلى ما يعود على الأمة بالنفع العام، وعليهم أن يحولوا الجامع إلى مستشفى لعلاج المرضى النفسية ليسود السلام فى المجتمع العام.

* * *

• **وحدة الثقافة طاقة يجب استغلالها:**

اللغة أداة التفاهم بين الأسرة الواحدة والشعب الواحد والأمة الواحدة، وهى أول وسيلة لتحصين الثقافة وتكوين الحضارة.

لأن اللغة هى الوسيلة المباشرة لنقل الشعور والعواطف من ذهن إلى ذهن ومن شخص إلى شخص.

وهى التى تترجم عن أفكار الأمة فى آمالها وآلامها، وهى إذن رباط الوحدة والإخاء، وأداة التضامن والتفاهم والتعاون بين أفراد الشعب والأمة.

والمسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ثقافتهم واحدة مبنية على القرآن الكريم والسنة الشريفة وأداتها هى اللغة العربية التى لا يختلف فيها عربهم وعجمهم، لذلك ظلوا أمة لا مثيل لها فى عالم العقيدة وعالم العبادة وعالم الاجتماع.

ولقد حاولت كل أمة من أمم العالم اليوم وقبل اليوم أن تفرض لغتها على سائر الأمم، ولم تجد لذلك مبررا سوى شهوة الفتح والسيطرة، ومع ذلك ظلت تنفق الغالى والنفيس فى فرض لغتها على من يحبها ومن لا يحبها ولا تزال بريطانيا ومن راءها أمريكا تحاول فرض سيطرة الإنجليزية على الأمم المتحدة وهكذا كل واحدة من الدول الكبرى وتلك اللغات كلها تفقد الخصائص الروحية التى امتازت بها العربية.

وقد أدرك الإسلام هذه الحقيقة فى أول وهلة من قيامه لذلك جعل العربية من نفسه جزءاً لا يتجزأ والتزمها فى جميع الأحوال.

فما من مسلم إلا وهو يتذوق قليلا من اللغة العربية بدافع العقيدة ودافع الإيمان ودافع العبادة ودافع النسك.

وما من عالم مسئول إلا وهو يرغب فى التعمق فى اللغة العربية ليكون متمكنا فى معانى القرآن والحديث والفقه وسائر العلوم التى يرجع فيها إليه الناس جميعا.

وعلى هذا وذاك صارت العربية دينا يتقرب به المسلم إلى الله تعالى، يقول الثعالبى فى فقه اللغة وهو ممن عاش فى القرن الخامس الهجرى: «ومن أحب الله تعالى أحب رسوله محمداً، ومن أحب الرسول العربى أحب العرب، ومن أحب العرب أحب العربية التى بها نزل أفضل الكتب على أفضل العرب والعجم، ومن أحب العربية عنى بها وثابر عليها وصرف همته إليها.

ومن هداه الله للإسلام وشرح صدره للإيمان وآتاه حسن سريرة فيه اعتقد أن محمداً خير الرسل، والإسلام خير الملل، والعرب خير الأمم، والعربية خير اللغات والألسنة، والإقبال على تفهمها من الديانة إذ هى أداة العلم ومفتاح التفقه فى الدين وسبب صلاح المعاش والمعاد» أهـ.

ومن هذه العقيدة امتدت العربية مع امتداد الإسلام فى ربوع العالم بعد أن كانت محدودة فى شبه جزيرة العرب وبعض أطراف الشام والعراق قبل الإسلام.

فانتشرت فى ربع قرن من الزمان حتى تغلبت على الرومية فى الشام وعلى القبطية فى مصر وعلى البربرية فى أفريقيا، وكانت تغلب على التركية فى آسيا الصغرى وعلى الأردية فى الهند تظهر ألوف من الأعلام فى الفقه والأدب والتاريخ والحديث والتفسير والنحو والصرف من غير أبناء العرب الأقحاح، ولم تعد العربية تراث العرب وحدهم بل تراث المسلمين جميعاً بخلاف اللغات الأخرى كالإنجليزية والفرنسية.

ولم تزل العربية تقوى مع قوة الإسلام وتضعف مع ضعفه فى كل ناحية يوجد فيها المد والجزر والانتشار والانحسار.

فكان غرب أفريقيا من البقاع التى أشرب فى قلوب أهلها حب العربية حتى ظهر فيهم أعلام سجل التاريخ أقلامهم فى الشعر والنثر منذ خمسمائة عام مضت إلى أن دخل الاستعمار هذه البقعة فتشعب تعليم العربية إلى ثلاث شعب.

الأولى: شعبة من يتعلم منها ما يكفيه للقيام بالأمور الدينية الضرورية فى مدارس القرآن والكتاتيب، أو ما يماثلها من المدارس الإعدادية أو الثانوية الإنجليزية.

والثانية: شعبة من يتخصص فيها للتعمق فى الدين كالفقهاء والأئمة الأعلام يتعلمون فى المعاهد المنزلية القديمة أو المعاهد الحديثة فى كانو وبرنو وسوكوتو والورن وأبادن.

والثالثة: شعبة من يتعلمها كلغة حية كالمستشرقين فى الجامعات والمعاهد الغربية، وهذا أثر من آثار العلمانية التى يطلق عليها علمنة الدولة وعلمنة القانون وعلمنة الثقافة، أى فصل كل شيء من ذلك عن الدين ليبقى علما مدنيا بحتا.

* * *

• علمنة العربية بتعلمها على سبيل الاستشراق :

من المؤامرات التى تحاك على العربية فصلها عن الإسلام، كما فصلوا الشريعة عن الإسلام بالقانون، وكما فصلوا الدولة عن الإسلام بالديموقراطية.

ولقد حمل الاستشراق لواء فصل العربية عن الإسلام بدليل وجود النصارى واليهود من بين العرب وهم لا يزالون على دينهم.

والاستشراق هو اهتمام أوروبى غير مسلم بتعليم العربية والتاريخ الإسلامى للوقوف على أسرار الإسلام إما للنيل منه أو لدس السموم فيه بقلب الحقائق إلى أباطيل وتصوير الإسلام بصورة مشوهة.

هذا هو الغرض الأساسى من إنشاء مدارس الاستشراق فى جامعات أوروبا وأمريكا وإن كان قد ظهر من المستشرقين من درسوا الإسلام حق الدراسة وهداهم الله إلى الحق وشرح صدورهم للإسلام فأسلموا، وكان منهم من خدموا الإسلام واللغة العربية بجمع المخطوطات القديمة وحفظها من الضياع وإخراجها من حيز العدم إلى حيز الظهور، وأبلوا فى هذه الخدمات بلاء حسنا أحرزوا فيه القدح المعلى الأسود.

فإن ذلك لا يسقط الغرض الأساسى والدافع الأصلى الذى من أجله أنشئت مدرسة الاستشراق ولا تزال تؤدى هذه الرسالة حتى اليوم.

وقد اعتنقت جامعات نيجيريا هذه العقيدة وأنشئت فيها أقسام للدراسات الإسلامية والثقافة العربية كما فى لندن وكندا.

ففى نيجيريا أيضا جامعة أبادن وجامعة أحمد بللو بزاريا وجامعة بايرو بكانو وهى وحدها التى تبذل الجهد المستطاع فى التخلص من الأحبولة المنصوبة لها، أما جامعة الورن وجامعة أنسوكا وجامعة واليفى وجامعة لاغوس وأمثالها فإنها غير واضحة

فى اتجاهاتها وغاياتها للإسلام والعربية، فعسى الله أن يأخذ بأيدى أصحابها حتى يخدموا بها الإسلام.

أليس من المضحك المبكى أن يكون تدريس اللغة العربية فى هذه الجامعة بالإنجليزية؟ وأن يرشح الطالب الذى يلتحق بهذا القسم على أساس مستواه الإنجليزى فيدرس العربية لمدة أربع سنوات فيحصل على بكالوريوس، ثم لا يقدر أن يتكلم العربية بطلاقة ولكنه بلبل صدوح فى الإنجليزية؟!

* * *

• أولئك كان سعيهم مشكورا :

لقد كانت نيجيريا من البلاد التى تقدمت فيها العربية بتقدم الإسلام منذ قرون وظهر فيها أناس بلغوا الغاية القصوى فى التمكن من اللغة العربية عرفوا غورها ونجدها ووقفوا على أسرارها وعجائبها وخصائصها وأفنوا حياتهم فى بذل الجهود الجبارة فى إتقانها وتمرنوا على تعليمها غيرهم وألفوا الكتب المناسبة لمداركهم وأذواقهم ونجحوا بها فى إنجاب تلاميذهم أكثر من إنجاب العلماء العرب الذين وفدوا اليوم إلى بلاد العجم لتعليم غير العرب إذ لم يوجد حتى الآن منهج واضح وكتب مقررة لغير أبناء العرب فى تعليم العربية، بل لا توجد فى المكتبات العربية حتى الآن كتب موضوعة لتعليم غير العرب كما يجب أن يكون، اللهم إلا نذر يسير من الأستاذ مصطفى السقا لتعليم أبناء إندونيسيا.

وإن كان التبادل الثقافى قد أخذ دوره الواسع بين البلدان العربية والبلدان الإفريقية، وبلغ عدد المنح التى وزعت على أبناء

المسلمين وغيرهم فى تلك البلاد الرقم الخيالى وبلغ عدد المبعوثين للتعليم فى تلك البلدان رقما خياليا كذلك، فإن نتائج أعمالهم وثمرات جهودهم أقل بكثير مما يجب أن يكون أو مما ينتظر منهم.

فإن الذين تعلموا بالأسلوب التقليدى على العلماء الأعاجم يستطيعون أن يأتوا بكثير مما يعجز عنه أولئك الذين تربوا على أيدى العرب.

وقد كان الناس يعيرون علماء هذه البلاد بعدم طلاقة لسانهم فى التكلم بالعربية، وجاء الذين تعلموا فى بلاد العرب باللغة الدارجة او العربية الركيكة، وقد كان العلماء ينقصهم عدم استطاعتهم الإنشاء الصحيح، ولكن كثيرا منهم يستطيعون قرض الشعر العربى حتى فى الرسائل العادية ولكن الذين رجعوا من بلاد العرب يكتبون الإنشاء فى الرسائل بالنثر ولا يقرضون الشعر.

إذن فالعيب هنا وهناك وليس مقصورا على فئة دون أخرى نسأل الله أن يقيض لنا من يصلح الأحوال.

* * *

• مساعدات الدول العربية لنشر الإسلام والعربية :

فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وفى أوائل الستينيات تحررت المستعمرات بغرب أفريقيا، فاندفع المسلمون للقيام بجهود جبارة ويقين حار يعملون أفراداً أو جماعات لإعادة مجد الإسلام واللغة العربية إلى البلاد.

فصادف أن فتحت السفارات الدبلوماسية فى البلاد وعلى مقدمتها سفارة مصر العربية وسفارة المملكة العربية السعودية ثم سفارة العراق وليبيا والمغرب والسودان، فكانت لهذه السفارات أيادى بيضاء فى المشاريع الإسلامية التى قام بها الأفراد والجماعات فى تلك البلاد.

خصوصاً سفارة مصر العربية التى لها مكانة عميقة فى نفس كل مسلم بفضل الأزهر الشريف، ثم سفارة المملكة السعودية التى لها منزلة سامية عند كل مسلم بفضل الحرمين الشريفين. ولقد زار نيجيريا كل من إمام الحرمين الشريفين بدعوة شبه رسمية، وكانت لزيارتهما أثر مفيد للدعوة.

ولقد كانت لهذه الزيارات آثار فعالة فى تجديد العلاقات الدينية والثقافية بين نيجيريا وبلادهما من جهة.

كما قات السفارات بدور ملموس فى محاولة توحيد صفوف المسلمين فى تلك البلاد رغم تعدد الجمعيات والمؤسسات من جهة أخرى.

ولقد تقدمت المملكة السعودية على الخصوص بمعونات أدبية ومساعدات مالية وبعثات ثقافية لتلك الجمعيات المتكاثرة عن طريق رابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ودار الإفتاء بالرياض.

ومهما ننس فلا ننس سابقة مصر على جميع الدول العربية فى التبادل الثقافى بينها وبين غرب أفريقيا من أيام سحنون الأفريقى الذى وفد على ابن القاسم فى مصر وأخذ منه الموطأ

ودون فتاوى مالك فى كتابه المدونة الكبرى ورجع بها ينشر الفقه والحديث فى شمال أفريقيا وغربها، وظلت العلاقة بين مصر وبين غرب أفريقيا حتى صار الناس يحجون إلى بيت الله الحرام عن طريق مصر ذهاباً وإياباً.

وقد سجلت كتب التاريخ مرور ملوك غانا وتكرور ومالى وسنغى على مصر وذكر القلقشندى فى صناعة الإنشاء أن البرناويين بنوا مدرسة للمالكية بالفسطاط وكان ينزل بها وفودهم.

ولعل هذه المدرسة هى التى نقلت فيما بعد إلى الأزهر وسميت بالرواق البرنوى، وقد زار مصر من علماء نيجيريا عدد لا يحصون منهم محمد أحمد التادلى قاضى تمبكتو ومحمود بن عمر ابن أقيت وأحمد بن محمد الصنهاجى جد أحمد بابا التمكبكتى وصالح بن نوح الفلانى المتوفى بالمدينة المنورة.

وقد زار نيجيريا من علماء مصر عدد كثير منهم الحافظ السيوطى، وقد زار كاشنة وكانوا وخصص فى كتابه الحاوى للفتاوى فصلا تحت عنوان «فتح المطلب المبرور وبرد الكبد المحرور فى جواب أسئلة بلاد التكرور».

كما سجل التاريخ رسالته إلى سلطان أكدز وكاشنة. ومن أشهر من زار نيجيريا فى هذا العهد الشيخ الدكتور محمد الفحام ١٩٥٢م ومكث فيها ستة أشهر يتصل بالهيئات والمنظمات الإسلامية وذلك قبيل استقلال نيجيريا وقبل توليه هو شيخا على الأزهر.

ومن الأعلام الذين زاروا نيجيريا من مصر شيخ الأزهر الحالى الشيخ جاد الحق على جاد الحق ومعه عدد من الأعلام كالشيخ عطية صقر والمقرئ عبد الباسط عبد الصمد عام ١٩٨٣.

هذا وقد تخرج من الأزهر عدد من أبناء نيجيريا يبلغون الآن ثلاثمائة يقومون بمختلف الوظائف الدينية والثقافية فى نيجيريا ولا يزال تحت التخرج ما يزيد على ألف وفى مدارس نيجيريا عدد من المبعوثين الأزهريين.

* * *

• حد التعاون على البر فى قاعدة الإسلام :

إن العمل فى حقل الإسلام من التعليم والتذكير والوعظ والإرشاد والتبليغ وغير ذلك أمانة فى عنق كل مسلم مهما كانت منزلته فى المجتمع على أساس اعتماد الفرد على نفسه أو على أساس التعاون الجماعى، هكذا كان العاملون فى هذه البلاد قبل فتح السفارات وكان العاملون يحتسبون أمر التحمل والأداء على الله الذى يثيب المحسنين لقوله تعالى: ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

[البقـــــرة : ١١٢]

بمثل هذه نجحت الدعوة فى غرب أفريقيا منذ قرون وبمثل ذلك تنجح اليوم وغدا ولن تنجح الدعوة ممن يتحملها لغرض فى نفسه من حقد أو حسد لأحد ولا ممن يتحملها سلعة يعرضها على أحد ليقبلها أو يردها أو يساومها بزيادة أو بخس أو يحملها بضاعة يصدرها إلى

سوق ليبيعها بوكس أو شطط، كالذين يراءون الناس بأعمالهم ويملأون الدنيا ضجيجا بالدعاية الجوفاء التى تسمع جعجعتها ولا ترى طحنا، يفعلون ذلك ليجدوا مساعدات السفارات والدول التى أرسلتها أولئك الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ويمنون على الله أو على الناس بأعمالهم.

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ ﴾ [الحجرات : ١٧]

ندب الإسلام إلى التعاون على البر والتقوى بقوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾[المائدة : ٢].. وبحديث «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» فالتعاون يجب أن يكون على الأعمال التى لا تتم على يد فرد بل على يد جماعة أو ما عجز عنه من بدأ به فيعان على إنجازه.

ولكن كثيرا من الناس فى بلادنا هذه لا يبدءون فى العمل الذى يستطيعونه حتى يبدءوا بطلب المعونة فاتخذوا التعاون سبيلا إلى التسول والتواكل ويأكلون بالدين مع أن الله كان يوصى جميع رسله بعدم السؤال على الدعوة أجرا بقوله لكل رسول: ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الشعراء : ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠].

وقد تكررت هذه الآية فى سورة الشعراء مع الكلام على كل نبى ولولا أن الله استثنى شيئا لنبينا محمد فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا

أَسْـأَلُكُمْ عَلَيْـهِ مِـنْ أَجْـرٍ إِلا مَـنْ شَـاءَ أَنْ يَتَّخِـذَ إِلَـى رَبِّـهِ سَبِيلا﴾[الفرقان: ٥٧].. لما ساغ لعامل فى الدعوة الإسلامية أن يأخذ على عمله أجراً ثم لما فى الحديث: «أحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى». متفق عليه. ولحديث: «مثل الذين يغزون من أمتى ويأخذون الجعل يتقوون به على عدوهم مثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها». رواه البيهقى والسيوطى.

فالتعاون على العمل الإسلامى الجماعى لابد منه فى هذا الزمان ولكن يجب أن يراعى فيه الإخلاص فى العمل لوجه الله تعالى والاعتماد على النفس أول كل شيء قبل الاستعانة بالغير، فإذا عجز مثل هذا عن تكميل عمله والاستمرار عليه بعدل طول الممارسة والمكافحة استحق المساعدة.

أما الذى يركز جهوده بالتقارير أو يملأ الصحف بالدعايات ولا طائل تحت رأس ماله وأرباحه فهو كما قال رسول الله: «إن المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور» فحذار من مثل هذا ثم حذار فإنه يضر الإسلام أكثر من أن ينفعه.

على أن الجمعيات الإسلامية التى التزمت نشر التعليم الإنجليزي قد رجعت الآن إلى ميدان التعليم العربى الإسلامى بعد أن صادرت الحكومة مدارسها وصيرتها مجانية عمومية.

أما الأفراد أو الجمعيات التى التزمت نشر التعليم العربى فكثير منها تتخبط خبط عشواء إلا من كان منهم علماء بالأصالة ولم يكن لهم من قبل صناعة غير التعليم العربى.

أما المساعدات التى تقدم إلينا بها إخواننا من الدول العربية والجامعات الإسلامية من المنح والمساعدات المادية، فقد آن بنا الأوان أن نكتفى بها فنخلع عن أنفسنا اللثام ونميط الزمام ونشمر عن ساعد الجد لكى نعتز بأنفسنا ونساعد من دوننا فى المستوى كما ساعدنا من فوقنا، فبذلك يتم الاستقلال الذى ندعيه ونتشدق به.

* * *

• **نصيحة إلى أصحاب المدارس والمدرسين فيها :**

على كل فرد يطلب العلم أن يكون له هدف غير طلب الشهادة فى العلم أو طلب العمل اليومى الذى يعيش به فى المجتمع وهذا هدف الرعاع، بل عليه أن يتخذ من العظماء من يكون له مثلا أعلى يحتذيه.

وأن تكون غايته من التعليم التمرين على الاعتماد على النفس فى الحياة والقدرة على الإنتاج الأدبى والفكرى والصناعى لدفع عجلة التقدم البشرى إلى الأمام.

وعلى كل مدرسة أن تكون لها غاية قبل جمع التلاميذ فى الفصل لا مجرد الهوى والتقليد الأعمى بأن فلانا وفلانا أسس مدرسة وأنا أفعل كذلك، بل عليه أن يدرك الباعث إلى بناء مدرسة والمطلوب من التلاميذ بعد تخرجهم منها.

وعلى كل أمة أن تكون لها فلسفة التربية قبل أن تضع مناهج التربية والتعليم، إما للصناعة أو الدين والأخلاق، وتكوين المواطن الصالح كامل الثقافة ناضج العلم، قال أحد المربين:

إذا لم تقتل المدرسة روح حب التعلم عند التلميذ فهذا حسن.

وإذا لم تجعل التلميذ معجبا بعلمه فهذا أحسن.

وإذا نجحت المدرسة فى إبقاء نار متأججة فى نفس التلميذ لا تطفأ إلا بالعلم فهذا أحسن الكل، ولها أن تفخر بأنها قامت بأشرف الأعمال وأعظمها.

فالمدارس العربية فى هذه البلاد يجب أن تكون الغاية منها الحفاظ على العقيدة والدين وإلا فلا داعى لتعلم العربية دون الإنجليزية.

وإذا كانت الحكومة بحاجة إلى من يعرف العربية فإنها لا تحتاج إلا إلى عدد قليل للعمل فى بعض الوزارات، لذلك فتجريد العربية عن الإسلام لا يصلح فى هذه البلاد.

* * *

• نصيحة إلى الراغبين فى البحوث والتأليف :

البحث أدب ونقد فى الشعر والنثر والتاريخ.

والتأليف تدوين وتصنيف للعلوم والحوادث أو تسجيل للتاريخ.

يقول الفخر الرازى: «الواضع الأول ينقل عن مساهلات ومسامحات ولكن الأخير يقدر على التنقيح والتهذيب».

وشتان بين من يكتب المعلومات أو يسجل الحوادث حرصا أن لا تضيع أو تطوى فى سجل النسيان وترمى فى زوايا الإهمال.

وبين من ينتقد ما كتبه غيره ليميز منه الغث والسمين والفج والناضج والقضة والفضة، وللنقد شروط وآداب لا تخضع للعواطف والميول والرغبات.

كما يجب أن نعرف الفرق بين من يكتب بحثا للحصول على درجة جامعية ثم ينقطع عنه وهذا كثير اليوم فى نيجيريا وغيرها، وبين من يتخذ الكتابة صناعته لا يستريح منها إلا بقدر الاستجمام ثم يعود إليها وهذا قليل جداً ونريد أن يكثر.

على كل باحث للدرجات العلمية يكتب بحثه تحت إشراف أستاذ يختاره من بين الأساتذة وإن كان الأستاذ سليم القلب نقى الضمير غير خاضع لعاطفة الحب أو البغض لشخص ضد آخر، وكان ممن يريد أن يبنى الأمجاد لقبيلة أو أمة كان البحث إيجابيا.

وإن كان الأستاذ أو التلميذ ممن يهدم ليبنى على الأنقاض أو كان حسوداً حقوداً مكابراً كان البحث هادما سلبيا.

ولكل من البنائين والهدامين وجهة هم مولوها، ومن وراء كل واحد منهم سائق يسوقه إلى غاية يهدف إليها.

لقد أحسنت جامعاتنا للعلم والأدب والوطن صنعاً إذ فرضت على شبابنا أن يكتبوا وحددت لهم مواضع ومباحث محلية يكتبون فيها.

غير أن نزوات الغرور التى تصحب الدرجات الجامعية عند البدائيين لا تزال تلمع فى سطور كتابات الذين يميلون إلى النقد الحاقد الفارغ وليتهم لم يميلوا هذا الميل السلبى الهدام ؟!

ولو أمعن الباحث النظر فى الذين جمعوا الأشعار الجاهلية كالأصمعى وحماد الراوية وخلف الأحمر لوجد أنهم صححوا منها الشيء الكثير ولم ينشروها على علاتها أو يرسلوها على عواهنها.

وقد اتهم ابن دريد والأصمعى، أنهم وضعوا على الأقدمين أشياء فى اللغة العربية كل ذلك دليل قاطع على أن كل أمة تحفظ لسلفها المجد الأثيل التالد ولا تهدم.

ولكل قطر من الأقطار ولكل مصر من الأمصار مفاخر ورجال يباهى أهلها بهم العالم.

فعلى أهل نيجيريا أن يباهوا بأسلافهم وأمجادهم ويفتخروا بما أدركوا من آثارهم مهما قل أو كثر وعليهم أن يبعثروا المكامن لنبش تلك الآثار فى كل بلد وكل قرية.

مع العلم أن علماءنا كانوا يهربون من الكتابة لما شاع وانتشر بينهم من قولهم: «من كتب نثرا أو قال شعرا فقد استهدف، ولا يزال المرء فى فسحة من أمره ما لم يكتب نثرا ولم يقل شعراً».

لذلك التزم أغلبهم السكون والسكوت والكف عن الكتابة فبقيت نتائج أفكارهم سجينة صدورهم ولم يجد الابتكار سبيلا إلى الظهور، ولم يكتب منهم إلا القليل ولم ندرك من القليل الذى كتبوا غير الأقل.

* * *

• **جدوا واجتهدوا ولا تبالوا :**

ونصيحتى إلى الشباب أن يجدوا ويجتهدوا فى الكتابة لا يبالوا بالخطأ ولا يكترثوا بالمادح والقادح كما فعلت أنا حتى ظهرت بالكتابة.

ولقد بدأت فى ممارسة الكتابة من غير وجود القائد الدليل، بل بدأت بالتعود على إنشاء الرسائل وقرض الأشعار اقتداء ببعض العلماء القليلين الذين كانوا يقرضون الشعر ويتراسلون به، فقلدتهم وكان قدوتى فى ذلك الحاج محمد البرناوى وزير بدا، وذلك فى شرح متون العلم، ثم شيخى الكنون آدم تماج الذى كان كاتبا شاعرا، ولكن لم يطل بى معه المكث وإنما بارك الله لى فى ذلك القليل بدعائه لى وتشجيعه إياى فى تقاريظه لما قدمت له من شروح المتون.

بدأت فى التأليف بشرح المتون فى أوائل الأربعينيات إلى أن زرت البلاد العربية عام ١٩٤٦ فتأثرت بالأسلوب الحديث المنتشر هناك، فانصرفت همتى من الشعر إلى النثر، ومن شرح المتون إلى كتابة التاريخ والبحوث، فصرت كما قال ابن الأثير: «أقوم وأقع، أخطئ وأصيب، أضل وأهتدى».

ومع ذلك صرت أمضى قدماً إلى الأمام غير مكترث بطعن الحاسد وقدح الحاقد بحق وبغير حق.

وكنت أنا المصمم والمبلط والبانى والمجصص الداهن وحدى لا أستعين بمن فوقى ومن ساوانى فى المحيط الذى أعيش فيه إلى أن

استوى ساقى، واستقام بنانى وصرت بمن يلتفت إلى كتاباته على علاتها.

فالحمد لله على أنى فتحت باب الكتابة على الكثيرين من أبناء جنسى اليرباويين والهوساويين ونقل من كتبى عدد غير قليل من العرب والعجم وعزوا إلىَّ ونسبوا، ولا تسل عن الذين نقلوا ولم يعزوا ولم ينسبوا ولا تبال بالذين انتحلوا أو نقلوا.

وقد امتحن ابن جنى بالإغارة على كتبه ونسبتها إلى غيره ولم ينقص من قدر المغار عليه ولم يزد شيئا على قدر المغير.

لذلك أهيب بالشباب أن يسيروا على هذا الضوء وأن لا يكتفوا بالكتابة للدرجات العلمية الجماعية فقط بل لإثراء المكتبة العربية والفكر الإسلامى النيجيرى عسى الله أن يوفقهم لقوله: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت: ٦٩].. ولحديث: «إذا اجتهد المجتهد فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد».

* * *

• الذكر والدعاء سلاح الأنبياء والأولياء والعلماء:

الذكر والدعاء من نوافل الخير والبركات التى ينالها الذاكرون والداعون ومن فضائل الله ونعمه ورحمته على عباده المؤمنين، ومن الكرامات التى أبقاها الله تعالى فى أوليائه لتدل دليلا قاطعاً على ما أعطاه لأنبيائه السابقين من المعجزات التى كانوا يتحدون بها البشرية.

فلا تجد فى الكرامات غير أن علماء غرب أفريقيا قد تحدوا بكراماتهم السحرة فألزموهم العجز وألقموهم الحجر. فبذلك صارت كلمة الله هى العليا وكلمة الكفر هى السلفى، فالذكر مقدم على الدعاء وكلاهما جوهر العبادة، أما الذكر فقوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾[طه: ١٤].. وقوله: ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[العنكبوت: ٤٥].. وقوله ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾[البقرة: ١٥٢].. وقوله فى الحديث القدسى: ((من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين)) رواه البخارى.

أما الدعاء لقوله تعالى: ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر: ٦٠] .. وقوله فى الحديث القدسى: ((من لم يدعنى أغضب عليه))..
وقول النبى ﷺ: ((الدعاء مخ العبادة)).

وأضف إلى ذلك كله ما يأتى من النكات الفلسفية وهى لا تخلو من فوائد جدلية منطقية فيما بين القضاء والدعاء.

فالدعاء سلاح المؤمن وهو طاقة مهملة عندنا فى نيجيريا وطالما سخرنا هذه الطاقة لأعداء الإسلام حيث وجدنا من العلماء من يشترى بآيات الله ثمناً قليلا وعرضا قريبا فى هذه الحياة الدنيا، فيدعو الله بأسمائه وآياته للنصارى والكفار حتى ولو كان فى ذلك مضرة للإسلام، فلا يبالى وقد توزع العلماء فى الأحزاب السياسية وظلوا يدعون الله لها رغم كون رؤساؤها أعداء الإسلام.

ولو التزم علماؤنا تقوى الله وحافظوا على حدوده وقاموا جميعاً كما فى الحديث: «ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد بقلب رجل واحد وسألونى فأعطيت كل واحد منهم مسألته ما نقص من ملكى شيئا إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر». ولكن للدعاء شروطا وآدابا تجب مراعاتها قبل انتظار الاستجابة.

ولو أن العلماء المسلمين قاموا جميعاً، وفى مختلف البلاد على قلب رجل واحد، وسألوا الله أن يعز الإسلام والمسلمين، وأن يذل الكفر والكافرين، وأتبعوا الدعاء بالجهاد والكفاح كما فعل ابن فودى فى عصره وفعل غيره من قبله ومن بعده، لوجدوا الله سمعياً مجيباً، ولنصرهم الله لقوله: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]

* * *

• **بين القضاء والدعاء:**

قال الغزالى: إن قيل ما فائدة الدعاء مع أن القضاء لا مرد له؟!

فاعلم أن من جملة القضاء رد البلاء بالدعاء فالدعاء سبب لرد البلاء ووجوب الرحمة، كما أن الترس سبب لدفع السلاح، والماء سبب لخروج النبات من الأرض.

وليس من شرط الاعتراف بالقضاء أن لا يحمل السلاح وقد قال تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢].. فقدر الله تعالى الأمر وقدر سببه.

وقال محمد العدوى: إن المقدور قدر بأسباب ومن أسبابه الدعاء فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور، ومتى لم يأت بالسبب لم يقع المقدور كما قدر التشبع والرى بالأكل والشرب، وقدر الولد بالوطاء والنكاح، وقدر حصول الزرع بالبذر، وقدر دخول الجنة بالأعمال الصالحة، ودخول النار بالأعمال السيئة.

وصح فى الحديث أن الدعاء يرد القضاء والقرآن يقول: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩].

قلت: ولو سأل سائل: ما الدليل على وجود الله؟

لكان الجواب السريع: الدليل على وجود الله أنه تعالى وعد باستجابة دعاء الداعى بقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].. وقوله: ﴿أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢].. وكان يستجيب وفاقا لوعده لعباده المؤمنين من قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].. وقوله ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].. وذلك كله دليل على وجوده، وهو أيضا دليل على صحة الإسلام على سائر الأديان، وصحة القرآن على سائر الكتب المقدسة.. وهذا فضل الله ورحمته ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

* * *

خاتمة البحث

لقد مررنا على أطراف من ماضى الإسلام وحاضره فى هذه البلاد بل وعلى أطراف من مستقبله وعلى ما نعمل لمقتضى تحسينه.

وربما كان حكمنا على ظواهر الأمور مبنيا على الظن، وكان بعض الظن إثما ولكن الظنون المبنية على قياس النظائر والأشباه لا تخطئ أبدا.

وللشيء على الشيء مقاييس وأشباه
وللمرء على المرء دليل حين آخاه

هذا فى كل ما أصدرنا من الحكم فى ماضى الإسلام وحاضره.

أما ما نصدره فى مستقبل الإسلام فلقد قلنا إن التكهن بالغيب أمر يأباه الإسلام ولا يرضاه لأن الغيب المطلق لله.

أما غيب الشهادة فهو ما كان مبنيا على مقدمات صحيحة مسلمة، وإن كانت لا تسلم من الافتراضات والتخمينات الملتبسة بالتخرصات التى لا يقطع بها على أساس القاعدة المنطقية القائلة:

ولا يجوز القطع بالدليل قياس الاستقراء والتمثيل

ولكن الحق الذى لا خلاف فيه بين العقلاء ما قدمناه من قياس الأشياء بالأشياء.

من قاس ما لم يره بما يرى أراه ما يدنو إليه ما نأى

فالدخان دليل على وجود النار، وسماع الصدى دليل على الصوت، فالظل دليل على وجود الشخص، والأثر دليل على المؤثر، وهكذا دواليك، فإذا سلمنا لذلك جدلا فلنا أن نسأل أنفسنا:

هل سوف ينتصر الإسلام على سائر تحديات الزمن وتيارات الإلحاد الجارفة من كل مكان ؟

وهل سوف يبقى الإسلام دينا يعبد به الله؟ أم هل سوف يعبد الله فى الأرض مع تحديات القرن الحادى والعشرين الميلادى الخامس عشر الهجرى؟!

فالجواب حسب رأيى:

إن الإسلام سوف يبقى ما بقيت الدنيا، وإن الدنيا لا تبقى إذا لم يكن للإسلام وجود ولا خلود.

ولقد استنبطت هذا الاعتقاد أو هذا الرأى من قوله تعالى:

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلا قَلِيلا * سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلا ﴾ [الإسراء: ٧٦ - ٧٧]

أما انتشار العلمانية والإلحاد فى أفريقيا فإن الأمر يختلف قليلا فيها عن الأمر فى أوروبا وأمريكا مهما ناصر الناس إبعاد الدين عن مجال التعليم وطغت العلمانية والزندقة والهرطقة فى كل مكان.

فإن روح التدين تكاد تكون غريزة فى نفوس الأفارقة عموما وفى نفوس أهل نيجيريا بوجه خاص.

وقد شهد شاهد من أحوال النصارى المبشرين بذلك، حيث ظلوا يهتمون بتعمير الكنائس فى أفريقيا على حين أنهم كانوا يبيعونها فى أوروبا بالمزاد العلنى لتتحول إلى حانات الخمور ومحلات الرقص أو لأشياء أخرى.

ذلك لأن عدم ظهور النبوة ورسالة السماء فى أوروبا وأمريكا قد أعان على ذيوع الإلحاد فيهما.

فإن اليهودية والنصرانية ديانتان أجنبيتان للقارتين المذكورتين، لذلك ظل أهلهما يريدون نبذ هذه الأديان المستوردة إليهم، ولو كان الأنبياء من أبناء جنسهم وكانت الكتب السماوية نزلت فى أرضهم، رأيتهم يتبجحون بها ويدافعون عنها بكل عتاد ولو على حساب الوطنية.

ولكن اليهود والنصارى قد حصروا النبوة فى بنى إسرائيل فقط - شعب الله المختار - ومنعتها الشعوب الأخرى.

فلا نبوة فى اليونان والرومان وما يتصل بهما حسب رأى اليهود والنصارى، فكيف لا ينتشر الإلحاد بالعلم الذى قوى شأنه فى بلادهم وعلى أيديهم؟

والإسلام وحده هو الذى قرر أن الله بعث فى كل أمة رسولا، ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾. [فاطر: ٢٤]

لذلك فالإسلام دين ربانى عالمى يوافق كل أمة ويساير كل مدنية وحضارة. فالأمل وطيد والرجاء أكيد فى أن للإسلام مستقبلا باهراً فى أفريقيا وفى نيجيريا، ويؤيد هذا الأمل والرجاء ما جاء فى

الحديث الشريف من قول الرسول ﷺ : «لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة» رواه مسلم.

غير أنه يجب على رجال الدعوة الإسلامية أن يعملوا ولا يتكلوا، وأن يجابهوا تحديات الزمن التى تريد أن تحول الإسلام كالنصرانية فينتقض الإسلام عروة عروة حتى لا يبقى منه غير القشر والعرض والشكل والصورة على نحو ما روى البيهقى : «يأتى على الناس زمان لا يبقى فيه من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، مساجدهم عامرة وهى خراب من الهدى، علماؤهم شر من تحت أديم السماء، من عندهم تخرج الفتنة وفيهم تعود» إلى مثل ذلك من الأحاديث، فعليهم أن يعملوا ما يأتى :

أولا : يجب على رجال الدعوة أن يتعهدوا حماسة الشباب المسلم، وأن يراعوا توقدها بالتوجيه والإرشاد حتى لا تتخبط خبط عشواء فتضل الطريق السوى حيث صار أكثرهم ينادون بتطوير الإسلام ليطابق النصرانية.

ومن قبيل ذلك إخراج فيلم النبى محمد ومحاولة تمثيل شخصيته ﷺ على الشاشة ولولا صحوة علماء الأزهر وعلماء السعودية الذين أجمعوا على تحريم ذلك لانتشرت الصورة المزيفة للنبى ﷺ فى العالم كله كما انتشرت صورة موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ .

ولا تزال فكرة علمانية أتاتورك تختمر أفكار بعض الشباب المسلم فى الدعوة إلى تعجيم الإسلام كالنصرانية كدعوتهم إلى

ترجمة كل شيء فى الإسلام، كى تؤدى الصلوات باللغات المختلفة وتؤذن وتقام الصلاة باللغة الأعجمية.

وآخرون منهم يريدون أن يتخذوا القرآن أغانى وأناشيد موسيقية كصلوات النصارى فى كنائسهم أو كالشعراء المغنيين فى حفلاتهم.

والسبب فى ذلك كله هو التحمس الأعمى للإسلام والجهل المركب الذى يحمل على البعد عن جوهر الإسلام بالاجتهاد الأبتر.

ثانيا: من الأخطار التى تهدد الإسلام فى نيجيريا: انسياق المسلمين وراء كل منظمة غربية وهى ليست بريئة من الفساد والإلحاد، أعظمها إثماً منظمة الماسونية وهى نوعان:

★ الماسونية العالمية التى أنشأها اليهود ونشروا سمومها فى العالم تحت شعار الأخوة والرحمة والتعاون، وكان ينتظم فيها غالبية القضاة والدكاترة وعلية الناس والأثرياء، وقد حاول الجنرال مرتضى محمد كسر شوكتها فكان من أسباب اغتياله المبكر.

★ ومنها الماسونية المحلية وهى دون الأولى ولكنها قوية منتشرة فى الأوساط اليرباوية فى جهات أبيكوتا وجبودى ولاغوس وهى لا تخلو من طقوس جاهلية وتقاليد وثنية.

ويندرج تحتها بعض المسلمين المغلوب على أمرهم. المغرورون بالوعود الكاذبة فى معاونة أعضائها عندما تنتابهم نائبة.

★ ومنها نادى روتارى وقد بدأت تنتشر بعد الاستقلال فى معظم العواصم وهو النادى الذى يضم الشبان والشابات يلتقون فى ذلك النادى لسائر الإباحيات، وقد انتظم فيها كثير من أبناء

المسلمين حتى الشماليين الذين انبهروا بالحرية المطلقة والتقدمية المفرطة ويبلغ عدد نادى روتارى حتى الآن نحوا من ألف ناد فى مختلف المدن والقرى.

★ ومنها عصابة المافيا وأشهرها «كادونا مافيا».

وهى منظمة نشأت فى أمريكا تحمى المجرمين حتى لا ينالوا العقوبة على جرائمهم وهى تهدد الأغنياء باختطافهم حتى يسيروا على هواها ويزعمون أنها منظمة تعاونية بين الأقران الذين تعلموا فى مدرسة واحدة وفى فترة واحدة وتصادقوا حتى تخرجوا، وإذا أرادوا إنجاز مشروع اجتمعوا وقرروا ما يفعلون، وقد قوى شأن المافيا أيام حكم الرئيس شغارى فانكسرت شوكتها بسقوط حكومته تحت أيدى العساكر، فعسى أن لا تقوم لها قائمة بعد اليوم.

* * *

• **ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله :**

يوم يستطيع العاملون فى الحقل الإسلامى أن يفعلوا ما يقولون وأن ينبذوا الجفاء بينهم وراءهم ظهريا، يوم يترك المسلمون الأثرة والأنانية والعصبية فيما بينهم ويأخذون بالإيثار ونكران الذات والفناء فى الإسلام والاعتراف بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣].. وقوله : ﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ [النجم : ٣٢].

يوم يقف كل أحد عند فطرته ويعطى الفضل لكل ذى فضل، ولا يخالف ليعرف، يوم لا يعترض زميل على زميله لمرض فى نفسه أو غرض دنيوى فى قلبه.

ويوم يجعل الدعاة كلهم نجاح الدعوة الإسلامية نصب أعينهم وشغل أذهانهم.

ويوم يستطيع الدعاة فى شمال نيجيريا الاستقلال التام فى أعمالهم والاعتماد على أنفسهم دون انتظار أوامر الحكومة أو مساعدة الحكومة قبل أن يعملوا.

ويوم يتعاون السلفيون والصوفيون والشماليون والجنوبيون على تحقيق الهدف الواحد والغاية الواحدة فى جعل كلمة الله هى العليا وكلمة الكفر هى السفلى.

ويوم تقوم كل طبقة من طبقات الأمة بالدور الذى تحسنه «وقيمة كل امرئ ما يحسنه» من عالم وفقيه إلى قاض ومحام وطبيب ومدير وأمير أو غنى أو تاجر أو فلاح وعامل وصانع ورفيع ووضيع وقام كل صنف بدوره والجميع يهدفون إلى غرض واحد هو الاتحاد والمجد والسؤدد والكرامة الإسلامية وانتصار الإسلام على سائر الأديان.

﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٤ ، ٥]

﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾

[محمد: ٧]

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين لهم إلى يوم الدين.

* * *